مسقط روحي

هبة خالد اشقيفي

مسقط روحي

الإهداء:

في حقبةٍ من الزمن وفي المكان (...) حيث لا داعي لذكره الآن إذ لم يكن محط الحديث عنده كان مستلقياً على ظهره واضعاً يديه الباردتين تحت رأسه يحدّق بنجمات السماء ويسرح بخياله بعيداً...

أنانيةٌ تلك النجمات على الرغم من صغر أحجامهن إلا إنهنّ يقمن بأفعالٍ لئيمةٍ ومزعجة إذ لا يميز أحدنا الواحدة منها إلا بانطفاء الأخريات المجاورات أي أنها تستغل ضعف غيرها لتقف على أقدامها وتخبرنا أنها الأجمل فتبدأ من حيث تنتهي الباقيات

ظلّ يفكر ويناقش قصص النجوم في ذهنه ويتعمق بتفاصيلها حتى أعاده قلبه للتفكير بما هو أهم "ضحى"

راح مع سماعه لصوت الذئاب الليلية يحاول الاعتراف لنفسه أولاً

أوَ دق قلبه فعلاً أم ماذا؟

أهي مَن سلبته لبّه وسكنت فؤاده أم أنها الأوهام تحركه يميناً وشمالاً؟

وبدأت عتمة الليل الحالك تنجلي بالتدريج فقد تنفّس الصبح مصطحباً معه صوت الديك الذي اشتراه الجار أبو ياسين منذ سنين ليوقظه لصلاة الفجر كما أن العصافير بدأت بتغريدها العذب مع صوت القرآن المنبعث من غرفة أسماء الأخت الصغرى الأكثر دلالاً وجمال.

ليفتح أدهم عينيه مع بداية يومٍ جديد ويبدأ المرحلة التي تلي التفكير.

رنّ الهاتف بعد انتظارٍ طويل توزّع فيه النظر ما بين ساعة الحائط وساعة اليد رفع؛ السماعة بلهفة طفلٍ صغيرٍ دنا من حضن أمه بعد ساعاتٍ من البرد المُضني ألقى التحية ولم تنبس ببنت شفة ليدخل بصلب الموضوع كجيشٍ قد جهّز عدّته الكاملة للحرب وبدأ بالهجوم حيث وصل لمرحلة تجسيد مشاعره اتجاهها بعد أن تحدث عن لقائهما الأول ووصف تفاصيلها بدقةٍ حتى تلك التي لم تلاحظْها بنفسها أخبرها عن جمال عفويتها وابتسامتها فحبها الخالص للجميع؛ سرد لها ما جال في خاطره أول الأمر حيث قال في نفسه ربما يكون الانبهار في البداية وستكون كغيرها فيما بعد عندما تتوطد العلاقة أكثر ويجمعهما بيتٌ واحد كما أخبرها عن مخاوفه من الملل في المستقبل والروتين القاتل

إلى أن صرخ كلٌ من قلبه وعقله بحدةٍ قاسية وتسارعت نبضات قلبه حد الهلاك وراح لسانه ينطق حروف اسمها بنغمةٍ رنّانة فأخبره كل ما في داخله أن الحياة لم تكن قبلها ولن تكون دونها سوى أياماً يعاكس ليلها نهارها وينهي نهارها ذاك المساء المظلم ليأتي بنوره الباهت تلك هي الحياة التي لا تصلح للعيش فهي أشبه بالجحيم لا بل الجحيم أشبه بها؛ حتى اتخذا قرارهما معاً قلبه وعقله أن الحياة بلا شريكٍ هباء ولا شريك بعد ذلك إلا "ضحى"

حيث أحبها الحب الذي لم يُحكَ عنه كثيراً ذاك الذي لا يأتي مباغتةً فيسرق صاحبه من النوم واليقظة الحب الذي لا يُبنى من النظرة الأولى بل يحتاج لتفكيرٍ وتصميم فالعزيمة أساسه والتعارف مركزه؛ لم يكن حبه لها مروجٌ عنه إعلامياً بل

كان مغموراً كقلبه الذي اعتاد ألا يفتحه إلّا لمَن اختبره بالصعاب وأجرى عليه تجاربه المعيارية لينال ما لا يناله غيره ويفوز بجزءٍ من قلبه الدفين هذه كانت سياسته المتبعة التي اختارها في انتقاء المقربين الذين هم في الحقيقة قلّة حيث أنه لم يكن ذا صحبةٍ متينة مع أولئك الشباب في الحي أو مع أصحابه في العمل ولا حتى أبناء جامعته إلا سامر الذي اخترق قوقعته وسكن داخله أما غيره فلا يأملون بالقرب منه حيث كان حاداً كالسيف لا يعرف للمجاملة سبيلاً ولا يسعى لذلك على أية حال فلرأيه الأولوية وإن كان لابد من الشورى فلا يستغني عنها.

أحبّه كل مَن حوله وحذروه في الوقت نفسه فهو من تلك الطبقة التي لا يعجبها شيءٌ مما حدث ويحدث فكان في صراعٍ دائم بين الانتماء إلى المعتقدات والانتماء إلى ذاك المجتمع الرمادي.

وفي يومٍ حار كان قد حضر محاضراته السبع إلى أن أنهكه الدوام كما ينتظره المزيد من المهام والواجبات فلا يزال النهار بمنتصفه وهو يرتب أفكاره وأولوياته حيث لا بد من تناول فنجانه القهوة الذي يُنسيه ما يسكنه من الإرهاق مع صديقه سامر في مقصف الجامعة كما ينبغي أن يعود إلى البيت ليتناول وجبة الإفطار مع والديه الأعزاء وأخته التي تنقلب عليه وتعلن حربها بمساعدةٍ من أمها حين يتناول وجبته الجاهزة من السوق أما أخوه قصي فهو مشغولٌ بالقدر الذي يمنعهم من استدعائه إلا بالمناسبات فالوقت جلّه مكرّسٌ للعمل والسعي لإرضاء زوجته وجنينها.

شرب قهوته بعد أن تأملها وهي تبعث رائحتها الشهية مع فوهاتٍ من البخار حيث كان لا يحبها إلا ساخنةً كنارٍ لا يطفئها حتى الماء وحتى في قمة حرّه ثم قصد بعد ذلك دكانة أبي ياسين الجار الطيب البسيط حيث يستبشر برؤيته خيراً وعدّ نقوداً فوق التي كانت سعراً للفطائر التي اشتراها فقدّمها لأبي ياسين مع ابتسامةٍ عذبة راقت لذلك المسنّ وردّ عليه بابتسامةٍ رافقتها الغصة إذ لم يكن يرى تلك الخطوة البسيطة التي حباها شابٌ بعيد النسب والصلة قريب الرحمة والرأفة من ولده الذي كبر على عينه ولم يبخل عليه يوماً في مالٍ أو مساعدة حتى في علاقاته الشخصية كان له داعماً ومشجعاً حتى أدخله كلية الطب في بلدٍ أجنبي وهناك حدث التغيير الكلي.

وبطريقه إلى البيت صار يرفع الفطائر بيده ويغرق بريحها الذي لا يشبهه شيء وهنا أطلّت بهيبتها وأنوثتها الحادة التي لم يسبق أن شهد الزمان لها مثيل تحمل حقيبتها الجلدية السوداء مرتديةً حجاباً أنيقاً ناصع البياض مما يدل على قوة ارتباطها بالدين وقوة إيمانها كما يزيد من ذاك الانطباع تلك العباءة الفضفاضة التي لبستها حيث تنافس سوادها مع خضرة عينيها المُغطّاتَين بنظارةٍ طبيةٍ تجميليّة تشرق لها الدنيا من خلالها.

بعد أن استمعت لكل ملاحظات المحامي القدير جميل العارف الذي اختارها بنفسه ليكون مدربها في القضايا القانونية التي تخصّ فرعها المحاماة ولتكون البرعم الأول الذي يشهد على إنجازه حيث اختارها لما رآه من رجاحة عقلها وبُعد نظرها

وسداد رأيها علاوةً على كل ذلك ما شدّه إليها تلك الثقة بالنفس التي تتمتّع بها وقدرتها على التحكم بعواطفها وبعد خوضها في تلك القضايا القانونيّة المتشابهة التي تحتاج الكثير من الجهد وإعمال العقل للتمييز بين الحق والحق المنقوص وليس بين الحق والباطل وحسب.

رأت أنها بحاجة لزيارة صاحبتها المهندسة أسماء لتقضي معها بعض الوقت الذي سينسيها تعبها كما يفعل في كل مرة؛ أوقفت سيارتها في مقدمة ذاك الشارع الشعبي الذي يضجّ بالمارة كما أن أصحاب المحلات والدكاكين قد غطّوه بالكامل؛ فنزلت من السيارة وأكملت داخلةً شارع صديقتها ليلفت انتباهها شابٌ شديد الوسامة يُجمّله طوله الظاهر وشعره الأسود الذي راح يتطاير مع الهواء لابساً قميصاً ملفتةٌ زرقته ذو أزرارٍ راقيةٍ مصطفّة بكل جمال ولعينيه السوداوين السحر الأكبر وما أثار عجبها بشدة هو منظره وهو ويشتم رائحة الفطائر كل لحظة في الطريق وبعث مشهده هذا الطمأنينة في نفسها كما ذكّرها بأيام الطفولة التي تحمل على أجنحتها طيف أبيها حيث كان يصحبها ليشتري لها الفطائر التي تحب أما هي فكان صبرها قليلاً حيث اعتادت أن تقف كل خطوةٍ لتتذوّق الطعم الذي عشقته منذ الصغر فراحت تبتسم ناظرةً إليه ابتسامةً لا شعوريّة كما أن طبول قلبها ستدقّ كلما عادت للماضي والذكريات مع أبيها في طفولتها حين كان كل شيء على ما يرام قبل أن يسرقه الموت من بين يديها الصغيرتَين؛ لاحظ أدهم نظرتها تلك

الفتاة الغريبة الجميلة التي بدت شاردةً فيه حد الذهول وقد نقلها من شارعه الشعبي إلى عالم الذكريات المخمليّة .

وظلّ شرودها مستمراً تراقب تغير ملامحه المفاجئ وكأنّه قد شعر بما يجول داخلها ليقترب منها وبعد أن حيّاها بلطفٍ وقد أجابته وما زال الشرود مهيمناً على هيئتها الداخلية منها والخارجية

-مرحباً

-أهلاً وسهلاً

-أيمكنني مساعدتكِ بشيء؟

فانتبهت لشرودها ونفضت دماغها لتسترد الحاضر بعد أن أبحرت وكادت أن تغرق في الماضي وأجابته

-لا شيء أعتذر إن أزعجك موقفي ولكنك ذكرتني بشيءٍ قديم

ابتسم مستغرباً أتعرفه من قبل أم أنه يشبه أحد معارفها فراح يسألها ليقطع شكه بالأمر اليقين

-أيمكننا التعارف؛ المدعو أدهم الحسن طبيب جراح مستقبلاً.

-بالتأكيد تشرفنا أستاذ أدهم وأنا ضحى الشامي طالبة حقوق في عامي الأخير

-أهلاً بكِ زادكِ الله شرفاً أستاذه ضحى

-سعدتُ بلقائك أخي والآن سأكمل طريقي شمالاً

-وأنا كذلك مع السلامة

أكمل طريقه إلى بيته وطرق الباب لتفتحه أسماء فألقى عليها التحية وأعطاها قبلةً في جبينها لتبتسم له وتقول

-أنت جائعٌ لا شك منظرك يوحي بذلك وتلك الفطائر إياك أن تنساها يوماً سآخذها إلى أمي في المطبخ ونحضّر الفطور

-حسناً هيا فأخوكِ هذا الواقف أمامك يتضوّر جوعاً أسعفيه فوراً

-ذاهبةٌ فانتظر قليلاً

-أماه ألم أخبركِ بزيارة صديقتي لنا اليوم فلننتظرها قليلاً علّها تأكل معنا كما أن أبي لم يأتِ بعد

-سنفعل يا صغيرتي أهلاً وسهلاً بأسماء وصاحباتها

-أغزلٌ دائم أم أنّ الرضا يأتي هكذا فجأة ودون أي سبب

-ما أريح بالكِ يا أسماء رتّبي غرفتكِ هيا قبل أن تصل وننشغل بتحضير الطعام

-سأفعل

جاء أدهم إلى أمه وقبّل يدها حيث تمتمت بدعائها المعتاد الذي تبدأ به على غير نهاية

-أنا ذاهب لأتوضأ وأصلي ريثما تنتهون أما ملابسي التي اكتسبت من العرق ما يكفيها فلا بد من تغييرها حالاً

-بل مسكاً يا حبيبي مسك سلمك الله لأمك وحماك

-ما أجمل كلامك هذا

-والأجمل منه مَن يُلقى عليه

وبعد نصف ساعة تقريباً كانت الصحون قد صُفت على الطاولة وجُهزت المائدة بالكامل جلس الجميع على

الكراسي الموزّعة بانتظام حول الطاولة أما أسماء فقد ذهبت تفتح الباب الذي طرقته ضحى من الطرف الآخر وبيدها الفطائر الشهية حيث اخترق ريحها أركان المنزل كلها؛ دلفت لغرفة الطعام بصحبة صديقتها وهناك وقعت المفاجئة حيث عرفا أن الصدفة التي جمعتهما قبل دقائق قابلتهما ثانياً فابتسما معاً ورحّب كلٌ منهما بالآخر كما أن ضحى شعرت بارتياحٍ كبير مع أهل أسماء منال الأم الحبيبة وعدنان الوالد الحنون الذي فقدته منذ طفولتها.

أكمل الجميع وجبته وقد ازدادت الفطائر بالعدد بشكلٍ طريف ذاك الشيء البسيط الذي جعل الكل في نشوةٍ عارمة وأكلوا حتى الشبع.

نهضتْ أسماء تنقل الصحون إلى المطبخ

وقد رفضت عرض ضحى بمساعدتها وداعبتها بعذوبة البنات ضحوتي ضيفةٌ عندي ولا يجوز لها أن تجلي الأطباق وإن زرتكِ فلا تدعيني أفعل.

ردت ضحى بابتسامةٍ طفيفة بينما كانت تذوب خجلاً وقد أطلقت نظرتها الساهمة باتجاه أدهم تتساءل تُراه كيف يفكر بها في تلك اللحظة تحديداً.

وما كان منه إلّا أن هدّأ العواصف التي شنّت حربها للتوّ وأولعت نيراناً لظى في قلبها وذلك بابتسامةٍ حملت معها كل معاني الحب والاحترام.

أوقدت النار تحت إبريق الشاي حالما بدأ حديث منال وزوجها عدنان الذي أخبرها عن عمله وأحداث يومه باقتضابٍ والوقار يطلّ من بين كلماته وهذا ما جعل

ضحى ترى فيه أبيها الذي توفي في عز شبابه وكانت حينها طفلةً في صفها الثالث ابتدائي.
شعرت ضحى بارتياحٍ شديد مع عائلة صديقتها أسماء الذين صاروا لها أهلاً مؤخراً.
أعدّت الشاي بطريقةٍ ماهرة ريثما أنهت أسماء عملها ودلفت حيث أدهم ممسكٌ بكتابه يحنو عليه كما لو أنه ابنه المدلل؛
اقتربت ضحى لتقدّم كوب الشاي لأدهم حيث أخبرتها أسماء بأهمية ذاك الكوب بالنسبة لأدهم.
فقال بكل حياء
-تفضلي يا ضحى أنت من أهل البيت
وقد شعر بآخر جملة نطقها أنها تخرج من صميم روحه وقد تمنى أن تكون فعلاً من أهل البيت.
-حفظكَ الله سبحانه قد جمعنا صدفةً قبل قليل ولم يخطر في بالي أن تكون شقيق أسماء.
-نعم تلك الأقدار تأتي بلا تدبيرٍ منا ولا تفكير؛ قلتِ لي أنكِ تدرسين الحقوق وستكونين محاميةً عما قريب.
-نعم هذا ما سيحدث بإذن الله فلدي من الحب لهذا التخصص بقدر ما يكفي للعمل به آلاف السنين.
-لكم أعجبني مجالكِ وكنت أطمح بدراسته لولا الظروف التي نأت بيننا تلك مشيئة الله وطموحٌ قديم لدى الأهل.
-رائع حقاً ولكن أنت ك طبيب تعرف تماماً أن لكل طريقٍ مصاعبه وإني لأراه من السهل الممتنع؛ طيلة سنواتي الدراسية أحببته حد العشق وكثيراً ما كنتُ أحلم

في لحظات المحاكمة وربحي الدعوة التي استلمتها كما سيحصل في كل مرة أستلم قضية؛ ويا ليته بتلك السهولة.
هنا تدخّلت أسماء بمقولتها الشهيرة
-ضحى في خدمة الشعب ولكنها تخاف يا أخي مما تدعوه بالقانون شيء يشبه التزمّت والالتزام.
-وما الضير في ذلك إن تناسب القانون مع الشرع فهذا عين المطلوب
-كما قلتَ تماماً إن تناسب وتلك النقطة التي تقلقني؛ لا عليك أخبرني عن حياتك الجامعية أكثر
-كما عرفتِ طالبٌ في كلية الطب البشري حيث لم أكن من أولئك اللذين يرضون بأعلى فرعٍ يتوفر لديهم أما أنا فكان حلمي مختلفاً ودخلته لرغبة أهلي ولكنني مع الأيام والأوقات الجميلة التي قضيتها بكليتي فقد أحببتُ الطب والغاية المثلى منه.
-بالطبع دكتور أدهم فللطبيب دورٌ هام ذو أثرٍ إيجابي كبير على المجتمع وحضاراته فنحن العرب قد عرف لنا التاريخ التميز في الطب والعلوم وتفوّقنا على المجتمعات الحديثة المعاصرة فتقدمها لا يعني انصرافنا وليومنا هذا مازالت الشعوب العربية تنجب الأطباء المناضلين أهل التضحية.
-إذاً تشابهنا يا صديقتي نحن بدورنا كأطباء نعالج الناس جسدياً وأنتم تعالجونهم من فساد عقولهم الذي هو في الحقيقة أشد خطورةً وعلى يديكم يُشفى المجتمع من أصحاب النفوس المريضة والقلوب المتحجرة.

استنفرت أسماء هذه المرة وهي تسكب الشاي في كوب ضحى
-عفواً صديقتك!!
أتسمعين يا ضحى صديقته
-بل صديقتكِ التي أعانكِ الله عليها
ولكن كما أخبرتُ أسماء من قبل ما تقوله يا أدهم صعب الحدوث على أرض الواقع بل ويستحيل أحياناً إذ لا أحد فوق القانون ولا قانون بالأساس أي قانونٍ هذا الذي تتغير بنوده حسب الحاجة في كل حينٍ لا تعرف له وقتاً واحداً.
جلست أسماء بينهم وكادت أن ترقص فرحاً كون الحواجز قد كُسرت بين أخيها الأرقى على الإطلاق وصديقتها الغالية ضحى وقد عرفت تماماً أن أدهم يخاطب فتاة للمرة الأولى بهذه اللهجة لهجة القلب.
انتهت استراحة أدهم ولا بد من ذهابه للعمل الذي لا ينتظره طويلاً مع العم جواد في تجارة الأقمشة بسوقٍ قديم كان لجيرانه صحبةٌ قديمة مع عدنان والد أدهم فقد منحوه حباً لشهامته وذكر أبيه الطيب فيهم.
أما منال فقد نهضت بعد أن أنهت كأسها من الشاي لترافق عدنان حتى غرفته وتناوله ملابس نومه حيث أتعبه الدوام الطويل فالوظيفة لرجلٍ بسنه مرهقةٌ جداً وبدقائقٍ قليلة ترك منال تسرح بخيالها وتذكر صفات ضحى التي كثيراً ما أعجبتها ليغط بنومٍ عميق كطفلٍ رضيع وفور أن لاحظت نومه ابتسمت وراحت تحيك

القبّعة الصوفيّة لحفيدها المنتظر ابن قصي كونه الحفيد الأول من الابن الأول.
حديثٌ أنثويٌّ مخمليّ يدور بين ضحى وأسماء حيث أخبرتها ضحى من خلاله عن كمية الدفء العامر مع جدران منزلهم المتواضع.
كما مر بحديثهم أسماءٌ كثر من المرحلة الدراسية الابتدائية وحتى آخر لقاءٍ بينهما فالشيء المشترك بين تلك الصديقتين هو قوة الذاكرة التي تأتي بأي شخصٍ بمجرد أن يعبر الطريق الذي يسلكوه ولو لمرة واحدة فقط.
ألقت أسماء كل ما بجعبتها من الهموم والمسؤوليات المترتّبة على أكتافها بسبب جامعتها فالهندسة لا شك تتعب كل مَن يفكر بالسعي نحوها حيث تسلبه الراحة والصبا هكذا وصفتها مع ابتسامةٍ ساخرة.
فأخبرتها ضحى عن الطريق المحفوف بالمهالك الذي سلكته بمفردها دون أي سندٍ تتكئ عليه سوى أمها التي سخّرها الله لتكون عوناً لها وبعض الأصدقاء الذين تحلّوا بالوفاء والإخلاص.
أنهت ضحى الحوار بعد أن تشقّقت شفتاها من الضحك لكل مسألةٍ تطرحها أسماء بأسلوبها الساخر المعتاد الذي حفظته لها عن ظهر قلب.
فكان لأسماء طريقةٌ مميزة جداً في كلامها
ودّعت ضحى رفيقتها وأوصتها بنفسها وتركت عندها رسالةً تحمل حروفاً قليلة لم تكن لأدهم وحسب بل

ولأبويه أيضاً شكرتهم في مطلعها على حسن ضيافتهم ثم أخبرتهم أنها شعرت بينهم ولأول مرة بالانتماء.
وقد ضجّ دكان أدهم بالمشترين ولكلٍ منهم طلبه الخاص المختلف عن غيره تماماً ومعاملته الخاصة ولكن هذا كله لا يمكنه أن يعيق شاباً ذكياً لمّاحاً مثل أدهم عن القيام بعمله وإتقانه على أكل وجه ومن حينٍ إلى آخر كان يتفقّد محاضراته التي يجلبها معه يومياً ليدرس منها بحثاً على الأقل من كل مادة وهذا ما زاد من قدره عند العم جواد الذي أمنه على تجارته وملكه.
وفي يومه التالي ذهب مع صديقه سامر ابن العم جواد الصاحب الوحيد الذي يؤنسه في كل حالاته مهما كثرت همومه وشحب وجهه فهناك الصديق الودود سامر رفيق الروح وبلسمها الذي يشعر بالارتياح ويفهم كل ما يكنّه ذاك الفتى ذو اللحية السوداء كما يخبره دائماً أنه وجد فيه الطفل بلحيةٍ وشارب وقد كان أدهم لسامر كأمٍ محبة ووطنٍ دافئ.
تقدّم أدهم مع سامر للامتحان النهائي حيث أرهقتهم فترة التحضير كونه آخر امتحانٍ في سنواتهم الجامعية ليجتازاه بكل جدارة بمعدلٍ ممتاز ولا بد بعدها من التجهيز لخطة الماجستير وقد قرر أن يعدّها مؤخراً مع سامر الشاب الذكي بالفطرة صاحب الأسلوب الدبلوماسي كما أنه غنيٌّ أخلاقياً وعلمياً ومادياً وحتى على الصعيد الاجتماعي فكان له التأثير الأكبر على شباب دفعته وكادره التدريسي وهذا تحديداً ما يفتقده أدهم الذي ينطوي على نفسه في الكثير من الأحيان ولا

تعجبه الكثير من الآراء كما رأى الدكتور أيمن المشرف على مشروعهما أنهما مناسبَين مكملَين لبعضهما فلا بد من وجود اللين والصلابة؛ حب المغامرة والتأنّي؛ حماس الشباب والعقلانيّة واجتماعهما معاً سبب لنجاح مشروعهما.

بعد انقضاء عشرة شهور كانت الخطّة العمليّة جاهزة وكل ما تبقى الإعداد فقط واللمسات الأخيرة على الجزء النظري والتحضير لتقديمها على ملأ الدكاترة والحضور.

في هذه الأيام لا بد من تخفيض ساعات عمله مع السيد جواد وقد أغلق سامر مكتبته حتى ينتهي من فترة الضغط تلك.

بينما كان أدهم يُدوّر المفتاح في القفل وينصرف ليقابل سامر وينظرا معاً في المشروع سمع إيقاع خطواتٍ تقترب منه وكأنه ألفها لا شك متأكدٌ أنه يعرفها التفت ليجدها أمامه بحسنها الطاغي الأستاذة ضحى مع زميلةٍ

لها تريد أن تشتري هديةً لها فابتسمت ضحى بخجل وتورّدتْ وجنتاها وهي تقول
-أنت ثانيةً! ألم تخبرني بالأمس بأنك طبيب!!
-أهلاً بالأستاذة ضحى ومَن معها نعم طبيبٌ وتاجر لا ينافي أحدهما الآخر فكلنا نلعب أدواراً شتى في الحياة ولا مانع في أن نجرب الكثير طالما لا تنافي مبادئنا
التفتت ضحى لزميلتها بابتسام
-الدكتور والتاجر والكثير أيضاً أدهم الحسن شقيق صديقةٍ قديمةٍ لي
وهذه مريم خريجة كلية الحقوق برعم قاضية
-تشرفنا أستاذة كنت أغلق الدكان لأكمل دراستي فقد اقتربت النهاية
فتح الباب مجدداً وأعطاهم ما طلبوه وقد طلبت ضحى منه أن يزورها مع أخته التي وعدتها بالزيارة في بداية الأمر ارتبك ثم أخبرها أنه سيفعل حالما تُتاح له الفرصة.
عادت ضحى مع مريم لمنزلها تشتاق وسادتها بحرارة فهي لم تنم لمدة يومين بالقدر الكافي لأن تقف سبع ساعاتٍ متواصلة في المحكمة للتدريب على القضايا التي يخترعها لها الأساتذة بما تحمله من الحالات الشاذة التي تصعّب الأمر.
وفي اليوم المحدد قامت العائلة بما فيها أسماء وأبويها وأدهم بزيارة ضحى وقد أصرّ أدهم على أن يصحبه سامر الذي رفض في بادئ الأمر على أنه قد قصّر في عمله ضمن المكتبة خلال الفترة الماضية وأقنعه أدهم

بطريقته الخاصة حيث لبّى دعوته وفي هذه الأثناء كانت ضحى قد أعدّتْ أطيب المأكولات وأشهى الأطباق بمساعدة مريم التي لم تتركها طيلة الفترة الأخيرة وقد أخبرتها عن أدهم ومشاعرها اتجاهه ونصحتها بالتعارف أكثر حتى تفهم طريقة تفكيره ويقوم بذلك؛

استمرت أسماء فور دخولها بعناقٍ مع ضحى التي لم ترها منذ فترةٍ ليست بالطويلة إلا إنها فترة امتحاناتٍ عصيبة لدى الطرفين كما رحبت الخالة رائدة بأدهم وعدنان وراحت تتعرف على منال التي دلفت قلبها دون استئذان وكأنها تعرفها منذ سنين.

أما مريم فكانت تسرق نظرةً خاطفة من سامر كلما أُتيحت لها الفرصة فقد جذبها كما فعل مع الكثيرات بأناقته وسحره كما أن الآخر كل ما لفت انتباهه هو مريم تلك الفتاة الرقيقة وكأنها قطعةٌ من وردةٍ جورية أصيلة فالحمرة التي اعتلت خدَّيها خجلاً زادت من جمالها جمالَين ووقع ما يُسمى بالحب من النظرة الأولى.

تناول الجميع وجبة الغداء التي جعلت عدنان يكثر من المديح كما لو أنه يأكل للمرة الأولى وكادت منال أن تغار لولا رجاحة عقلها.

جلس الجميع في مجموعتين ليكتمل المشهد باجتماع الشمس والقمر كلٌ في جهته.

تناول الشباب أحاديثاً شتى ضمن جلستهم اللطيفة التي تخلو من الالتزامات والأعمال الروتينية المملة.

وكأن في تلك اللحظة تحديداً أراد الله أن يؤلّف بين القلوب ويحدث الانسجام فقد قُطع اتصال شبكة الانترنت مع انقطاع الكهرباء وهذا بدوره عاد بهم إلى سنواتٍ ليست بالبعيدة إلا أنها منسيّة لقسوة الظروف حيث كانوا أطفالاً في الروح وراحوا يتحادثون بمرح الأطفال وحريتهم في التعبير دون أدنى ارتباك إذ لا تقيّدهم عاداتٌ ولا تقاليد كما أنهم لا يلقون بالاً لما يسمى بال "الإتيكيت".

فتح سامر الحديث الأكثر شعبية بين الشباب المثقفين

-كوني صاحب مكتبة ولا أفهم في أي شيء كالكتب والقراءة أحب أن أتعرّف على دواخلكم من خلالها؛ مَن كاتبكم أو كاتبتكم المفضل/ة؟

كانتْ أسماء الأكثر اندفاعاً في تلك الأمور تلك المهندسة التي عشقتْ المطالعة منذ سنواتها المدرسيّة الأولى لتجيب بكل حماس

-حبيبتي أحلام مستغانمي التي تجذبني بتلك النظرة السوداويّة إلى المجتمع الرجعي وإن كانت لا تشبهني بالطريقة.

بعد أن أدلت أسماء برأيها كان من السهل أن تتشجع مريم بردها على سؤال فارس أحلامها الذي ظهر مؤخراً

-أما أنا فكاتبي المفضل هو أحمد حجازي أعشق أسلوبه وتعابيره وأتلذّذ بقوة ألفاظه ودقة تمثيله حين يتحدث عن الحرب وإن كانت من وحي الخيال أشعر وكأنني قد عشتها.

وهنا جاء دور أدهم ليستطرد ما بدأته مريم بقوله
-أوافقكِ الرأي إذ أنّ الحرب فكرةٌ جذّابة بحدّ ذاتها وإن كان أحمد حجازي قد تحدّث عن الحروب فإنها القطعة المغناطيسية التي تجذب القارئ فيجد نفسه يعيشها بالفعل بأي شكلٍ من الأشكال وهذا ما وجدته مجسداً في روايات الدكتور أدهم شرقاوي أيضاً حيث قسّم كلامه ما بين الحب والحرب بطريقةٍ عفوية يُشعر القارئ بأنه يحاوره والأهم من ذلك كله أنه يترك له مجالاً في النهايات المفتوحة كي يعمل عقله وينشط خياله فيختار الخاتمة التي يحب.
أصغتْ ضحى لآرائهم بكل تركيز وأثنت عليهم
-والله إني لفتاةٌ محظوظةٌ حقاً وقد اجتمع في بيتي طبيبان ومهندسة وقاضية والأجمل من هذا كله أن كل مَن ذُكروا قرّاء من الطّراز الرفيع.
وما كان من الجميع إلا أن يردوا بابتسامةٍ وإيماءة على أن تكمل وتخبرهم رأيها الذي انتظره أدهم طويلاً فمن هنا تقريباً سيعرفها تماماً ويحتم أمره
-كاتبي المفضل المبدع الدكتور أحمد خيري العمري وهو لمَن لا يعرفه كاتبٌ شاب يمزج بأعماله بين الأمور الدينية والدنيوية فترى ضمن كتبه أموراً شرعية قد لا تراها في الكتب الفقهية نفسها كما أنه يتمتّع بأسلوبٍ راقٍ يخاطب العقول قبل القلوب وهذا ما نحن بأمسّ الحاجة إليه كقرّاء.

سكتتْ قليلاً لتنظر وقع كلماتها وتأثيرها على الحاضرين وعلى أدهم بالتحديد؛ ثم طرحت السؤال نفسه لتكون الطرف السائل وسامر الطرف المجيب

-قد قرأتُ حقيقةً لكل المذكورين وبالفعل كل واحدٍ وجدته كما وُصف وإن كان لي رأيٌ آخر فأكثر مَن سحبتني لعالم القراءة هي الدكتورة حنان لاشين بروياتها الخيالية البحتة إلا أنها لا تخلو من القيم والمبادئ الاجتماعية والأخلاق السامية

كما أن أدهم شرقاوي يحيي الصبا داخلي فلكلماته روحٌ تنبض حين نقرأها تتحرك بنا وتحركنا.

فقالت مريم فوراً

-ربما لأنه نشأ وكبر في فلسطين تلك الأرض المقدسة التي تمنح مَن شرب ماءها موهبةً وسحراً خاصاً كما هو الحال مع الأديب غسان كنفاني.

فأيّدوا رأيها جميعاً

مرتْ دقائق على صمت الجميع حتى أنهم سمعوا نبضات الساعة مع نبضات قلوبهم فامتزجت سوياً حتى لم يقدروا على التمييز بينها.

وقطع صمتهم مجيء الكهرباء وقبل أن يحرّك أحدهم ساكناً حتى أدهم الذي قال ما قال حيث أن قلبه لم يكن ساكناً بل يتوهّج حدّ الاحتراق وكان لسانه متحركاً أيضاً حيث تدرّب كثيراً على ما سيقوله

-ضحى ما رأيكِ بي... أقصد.. أعني أترين لي مستقبلاً جيداً كزوجٍ ورب أسرة

ما أردت قوله باختصار أتقبلين الارتباط بي ومن ثم الزواج؟
أنهى جملته الأخيرة والعرق يتفصّد من جبينه حتى أخته أسماء خازنة أسراره وبئره العميق تفاجأت من طلبه وسرعان ما أُعجبت بجرأة أخيها وازداد حبه في قلبها أضعافاً حيث ظل ذاك العظيم القدوة ولكم تتمنى أن تُرزق بزوجٍ مثله.
ركضتْ ضحى إلى المطبخ ودون أن تخبرهم بأنها ستعدّ العصير وكأنها عادت تلك الفتاة الصغيرة التي تهرب إلى المطبخ فور أن تشعر بالارتباك من أمرٍ ما وتركته وراءها مشغول البال حائر الفكر مقبلاً على أي حديثٍ جديد غير الذي كان فعاد وسامر بسرعةٍ قصوى إلى الحديث عن الدكتور أيمن الذي منحهما من ثقته وحبه ما كانا يحتاجانه وأكثر ظانّاً بذلك أنه استطاع إخفاء توتره عن سامر وما غفل عنه حقيقةً أن سامر يعرفه أكثر من نفسه.
وقفت ضحى فور دخولها المطبخ والدموع تملأ عينيها تتذكر أبيها الراحل الذي خلّف وراءه الكثير من الندبات والآلام تُرى لو كان بينهم أي فخرٍ بابنته هذا حيث جاء شابٌ كأدهم لخطبتها؛ كانت تجد في أدهم المواصفات التي رسمتها في مخيلتها وهي في الخامسة عشر من عمرها.
لاحظت أسماء شرود صاحبتها وقريبتها عما قريب وهي تغسل الصحون فهمست لمريم التي كانت تستذكر كلام سامر كل حرفٍ على حدا أن رافقيني لننظر أمرها

فوقفت كلٌ منهما إلى جانب صديقتهما واحتضنتها أسماء كما فعلت مريم في اللحظة ذاتها وقد تنبّأتْ كلٌ منهما بقبول ضحى دون أن تنبس ببنت شفة تلك هي الحاسّة السادسة التي يمتلكنها الصديقات.

وانتهت الزيارة دون أن يُفتح الحديث مجدداً حيث أن ضحى ظنّتْ أنه مجرّد كلامٍ قاله بعد الارتياح بجلسةٍ مخمليّةٍ كهذه لا أكثر وأما الآخر فقد أيقن أنها رفضته ولم يناقش الأسباب مع أحد حتى في سره حاول أن يتناسى ما حدث في تلك الزيارة.
وظلّتْ أسماء بعيدةً عن هذه العلاقة التي لم تتكوّن بعد وأرادت من كل قلبها أن تتوطّد العلاقة بينهما خشية أن تخسر واحداً من أغلى اثنين في حياتها.
ودارت الأيام ومرت الأيام كما تقول أم كلثوم لتحصل ضحى على شهادة التدريب من قِبل الأستاذ جميل العارف ومع رجوعها من مكتبه اتصلت بها أسماء التي لم تنقطع علاقتها بها قط لتدعوها لحضور الحفل حيث قالت بطريقتها التي أصبحت مألوفة لدى ضحى
-الآن فقط وفي الأسواق حصرياً بعد أن كدّست عائلتنا الكريمة ثلاث مناسبات بحفلٍ واحد ندعوكم لتكونوا بيننا.
-مباركٌ حفلكم ثلاثي الأبعاد في الحقيقة نتشرف بالحضور يا عزيزتي ولكن لم تخبرينني عن المناسبات المتعددة

-بارك الله في قانونكِ عدّي على أصابعكِ العشرة أول ما في الأمر قدوم عدنان الصغير حفيد عائلتنا الأول ثم يأتيك حصول أخي الدكتور أدهم ورفيقه الدكتور سامر على شهادة الماجستير في الطب الجراحي والخبر الثالث على الترتيب هو ترفّع صديقتك للسنة الخامسة والأخيرة

أما باقي أصابعكِ فدعيها تعدّ فرحتي المكررة بآخر مناسبة

-الحمد لله لكل مجتهدٍ نصيب اللهم زد وبارك بالأفراح التي تنعش القلب وأسألك اللهم الرضا للمهندسة أسماء الحسن التي أشك في أن إرضاءها ممكنٌ بلا معجزةٍ منك

-سلمكِ الله هيا لا تتأخري وأخبري الخالة رائدة أنّ أمي تنتظرها وقد وعدتُها أن تكون بين الحاضرين

-سنفعل إن شاء الله

في تمام الساعة الواحدة ظهراً كانت الصالة تضجّ بالأقارب والجيران والرفاق والجميع يحتفل بأدهم وسامر كما أن سامر قد دعا مريم للحضور حيث صارت من أقرب الناس إليه فدخلت مباشرةً تتجه نحوه وبيدها هديتها المتواضعة مادياً ولكنه فرح بها الفرح الذي لم يجرّبه من قبل وكأنه يرى فتاة للمرة الأولى حين رآها ولم يعد قادراً على رؤية غيرها فقد اختزلت الكرة الأرضية نساءها من أجله لتحتوي مريم وحدها.

قد استغرق سامر معظم وقته في الحديث مع مريم حيث لم يجرؤ بعد على أن يتقدّم لها وكأنه تعقّد مما حدث مع صديقه أدهم دون أن يخبره.
أما أدهم فقد جال بين معظم الطاولات مارّاً بكل الموجودين كما أسرّه الوقوف مع جواد وأبي ياسين المتقدمَين سناً والشباب في أرواحهم.
في تلك الأثناء دخلت بصحبة أمها وبيدها باقة الورد التي جذبت جميع الحضور فانتبه للحاضرين يتهامسون عن جمالها وأناقتها رغم أنها لم تكن تتناول أي شيءٍ من مستحضرات التجميل كما أنّ لباسها كان ساتراً جسدها إلا أن الجمال لا يختبئ خلف الكواليس بل سيظهر لا شك؛ شعر وللمرة الأولى بشيءٍ من الغيرة عليها وشعر أيضاً بالانتماء لها وكأنه جزءٌ منها وهي قد اقتُطعتْ منه فركض إليها وقد ازداد البريق في عينيهما وشكرها بعد أن هنّأته ولم يعد يراها طيلة فترة الحفل حيث أكملت بقية الوقت في المطبخ تساعد أسماء مرةً وتحكي على هاتفها الجوال مرةً أخرى ولكن مكالمتها آلمته وأخافت الطفل ذي اللحية داخله فقد كانت تحكي بصوتٍ منخفضٍ ومتوتر
أيعقل أنه قد تأخر وكان من اللازم أن يعيد المحاولة مباشرةً!!
هل من الممكن أن تكون قد خُطبت لشخصٍ آخر دون أن تخبره أسماء فهي من أعزّ صديقاتها ولا بد أن تعرف حدثاً هاماً بحياتها كهذا

ربما عرفت ولم تخبره خوفاً على مشاعره حيث سيؤثر جرحها على مستقبله الرابض في الأفق القريب.
كان حاضراً الحفل بجسده مسافراً في ذهنه إلى اللامكان.
ويتذكر كل بضع ثوانٍ فرح أمه وأبيه المتأرجح بأعينهم فيبتسم ويلمح أسماء وكأنها فراشةٌ تحلّق بين الطاولات وصوت ضحكاتها المتوالية يكاد يخترق خوفه.

وأخيراً انتبه لوجود مريم مع سامر ولاحظ الانسجام الكبير بينهما فاقترب منهما وربّت على كتف صاحبه وهمس في أذنه
-وقتك هذا فاغتنمه يا صديقي مناسبان أنتما لبعض أسعد الله قلبيكما
شعر أدهم بالخجل حيث ابتسمت مريم لقوله وقد سمعته كاملاً وبوضوح
-آسفٌ إن كنتُ قد تجرّأتُ وكسرتُ الحواجز ولكنه أخي الذي لم تلده أمي أخي مثل قصي تماماً وأنا موكلٌ في النظر بأمره أليس كذلك يا سامر
ابتسم سامر فقد اختصر أدهم عليه خطوات وكأنهما تبادلا الأدوار هذه المرة ثم انتقل للمرحلة التالية من عمره ليجتاز العقبات مع مريم بكل مرونةٍ ومهارة.
وبعد مرور منتصف الوقت تقريباً دخل قصي متأخراً كعادته فقد أحب زوجته حدّ الجنون وكثيراً ما أشبه

المراهقين حيث عفا نفسه عن الكثير من الالتزامات العائليّة وكرّس وقته للعمل من أجل تأمين متطلّباتها وجنينها بعد أن فقدت الأول في شهرها السادس من الحمل وهذا ما جعلهم أكثر خوفاً وحرصاً على الجديد ومن شدة فرحه بسلامة زوجته بعد ولادتها وقدوم فرحة عمره عدنان جاء مسرعاً لأدهم وحمله أمام الجميع مناديا بكل ما رزقه الله من قوةٍ في الصوت

-مَن مثلي اليوم!!

مَن يمتلك كحظي!!

فقد صار أخي طبيباً وصرتُ أباً تلك هي الأمنيات التي حدَّثتَني عنها يا أخي فقلتَ حينها أنها تأتي جملةً لا فراداً معك حق وهذا ما حدث بالفعل

الحمد لله ولله الحمد

احتضن أدهم أخيه حامداً لله والدموع قد غسلت وجنتيه ولاحت عليه ملامح الحب حيث اختلطت مشاعره وشكّلت مزيجاً صعب التفكك من الفرح والتوتر؛ الإقبال والإدبار؛ الحماس والتردد.

وبعد أن انتهى الحفل العظيم الذي شهد دموع الفرح والمشاعر الدافئة سارع أدهم إلى أسماء وراح يدور حول الموضوع ولا يصيبه خشية الخذلان والخيبة فأكثر ما يرجوه في وقته الحالي كان المزيد من الأمل ولو لثواني.

بدايةً أخبرها بأنها تبدو في قمة الجمال وقد بدا لأسماء بذكائها وسرعة بديهتها أنه يمتلك الكثير من الكلام ولا بد أن تعطيه المفتاح

-كان الجو رائعاً اليوم وقد بدا لي أن الجميع في سعادة
-صدقت الجميع باستثناء الدكتور أدهم الذي أهمّه ما يخفيه عن أخته وحبيبة قلبه أسماء
-كنتُ بخير
-ألستُ تلك الفتاة التي تخترق المسافات والملاك الذي يضفي الجمال أينما حلّ ألستُ الواعية بالقدر الذي لو وُزّع على سكان الصين لرجع دون أن ينقص فلماذا إذاً تحوّل الدكتور فجأة وصار مغروراً لا يأمن لأخته على حفظ أسراره
-أسماء.. دون مقدمات أعرف تماماً أن علاقتك بضحى لم تنقطع أتعرفين عنها شيء
-بالطبع أعرف كل شيء
-لا أنا أريد معرفة تفصيلٍ واحد فقط
-لا لم ترتبط بأحدٍ بعد ولا يبدو أنها ستفعل
-لا خطبة ولا زواج
- لا يا أخي مازالت ضحى "سينغل" تنتظر فارس أحلامها لينتشلها من عالم الحقوق والمحاكم ويمنحها الجو الأسري الذي تشتاقه منذ طفولتها
-سينغل إذاً ألكل المهندسين مصطلحاتك هذه!!
-ربما ولكنني لستُ ككل المهندسين على أي حال أسماء ذات التفكير المغاير للعادة
-أعرف ذلك فنحن مَن لا يعجبنا المسار علينا تغييره علينا أن نوقد شمعةً بدلاً من لعن الظلام
-بالطبع ولكن..
وسكتت لما رأته من ذبولٍ في عينيه وشحوبٍ في وجهه

-عساك منشغل الفكر الآن وهذا سيضرّك إن حدّثْتُك بتلك الأحاديث الفلسفيّة وال "لكن" التي سترهقك أكثر ولكن سنكمل من حيث قطعنا ولتذهب إلى ما يشغل ذهنك

ركض أدهم إلى المنصّة حيث ذهب كل مَن كان في صالة الحفل وبقيت أفراد الأسرة تستذكر مراسم الحفل علّق أدهم ناظريه في مشهدٍ أسريٍ رائعٍ أمامه حيث أبوه عدنان يحمل حفيده وكثيراً ما أعجبه ذاك المنظر فلأبيه بالمشيب وقارٌ وهيبةُ وحنان أمٍ تحمل ابنها.

تقدّم أدهم فوقف بين قصي وسامر ليستمد منهما القوة والتصميم وقد عزم على أن يخبر أهله حقيقة ما جال في خلده

-ما أجمل عدنان حين يحمل عدنان

-ألهذا الغزل غرضٌ آخر كما اعتقدت أم أنني لم أُصبْ هذه المرة!!

فزاد ارتباك أدهم وهو يتمتم بكلماتٍ شعر بها تخرج من شخصٍ غيره

-لا يا أبي مثلك لا يخطئ أبداً ولكنّ هذا المشهد الجميل أثار إعجابي فعلاً ومن واجبي كما علمتني ألّا أبخل في الإفصاح عن مشاعري فبخل الجيب يُشفى ويُغفر أما بخل القلوب فلا علاج له أليس كذلك يا معلمي!!

علا صوت عدنان هذه المرة وهو يناشد الجميع

-بالله عليكم أرأيتم كيف يخلّص نفسه من المآزق التي أجرّه إليها؛ كان خطأي عندما أدخلتُكَ الطب الذي لا يحتاج للفلسفة إذ لا داعي أن تحاجج المريض مثلاً

فتكسب الحديث كان لا بد أن تدرس الفلسفة من أوسع أبوابها فالمهارة عندك وربما يليق بك أن تكون سفيراً للكلمات المخملية
وضحك مع كلماته الأخيرة.
فأكملت أسماء بمزاحٍ لطيف
-يا لخسارة الطب حينها مَن سينقذه إن لم يكن أدهم فيه ومَن سيداوي القلوب إذاً أيها الطبيب العاشق والفيلسوف هيا أفرغ ما بجعبتك فالحاضرون بالكاد يسمعون وقد أتعبتْهم أجواء الحفل
وزاد من توتره كلام أسماء وقد مهّدتْ له الطريق وكشفت مفاتيح حديثه وبدأ حديثاً روحياً بنبرةٍ مختلفةٍ ممزوجةٍ مع نبضات قلبه
-ما رأيكم بالأستاذة ضحى صديقة أسماء أجدُني مرتاحاً بوجودها وأراها مناسبةً لي كزوجة وأم أبنائي مستقبلاً
وقف الجميع شاهد عيان على لحظات ارتباكه أثناء الحفل كما أن عائلة الحسن تتميز بحدسٍ عظيم لا يخطئ غالباً حيث تنبّأوا بما سيحدث منذ البداية؛ كل المستمعين وافقوا ورحبوا بالفكرة إلا إنّ عدنان المتأنّي طلب من ابنه أن يعيد النظر بعض الشيء ويشاور عقله ثم قلبه مرةً أخرى
-يا بني لا ترتبط فهذا مشوار حياة وليس مجرد تسلية ربما الفراغ بعد رسالتك الماجستير هو ما حرّضكَ على الإقدام على أمرٍ مصيريٍّ كهذا فهي فتاةٌ كاملةٌ من ناحية الدين والأخلاق والعلم والجمال إلّا إنّ الكمال لله وحده إنها محاميةٌ يا أدهم وهذا يعني أن الوقت ليس من

ممتلكاتها البتّة كما أنها على أغلب الظنّ ذات فكرٍ سياسيٍ بحت فقد تربّتْ في أسرةٍ صغيرة وحيدةٌ لأبويها لم تعش إلا مع أمها المسنّة ومعظم وقتها تقضيه بين بنود القوانين ومواد الحكم والمحاكمة؛ ما أدراك إن لم تكن فقيرة المشاعر لما يتناسب مع بيئتها

رد عليه أدهم فأسكت كل مخاوفه بكل ثقةٍ وجرأة لاحظها في نفسه مؤخراً فتفاجأ بها

-نعم لديك من الحق يا أبتي بقدر ما تعرف ولكنني تشاورتُ وعقلي أكثر من مرة فلم أجد غيرها بسائر الأزمان والأماكن ولو جئتني بعد خمسين عاماً ستجد حتماً كمية الحب نفسها إن لم تزد

كما أن الاختلاف بيننا هو ما جذبني إليها فهي جريئةٌ لا سلطة لمشاعرها عليها وتتحكم بعواطفها بدقة الساعة فلا تفسح المجال لمشاعرها أن تسيطر عليها بحكم طبيعة عملها عكسي تماماً حيث تحملني المشاعر على أن ألقي نفسي في غياهب جب

ولديها يا أبي من الأساليب الدبلوماسية ما يلزم ليقنعك أن اللبن أسود والقهوة عسليّة أشد حلاوة

-وهذا ما أخشى حدوثه إذاً تجهزي يا منال لوجود أدهمَين معنا في كل وجبة طعام وستتحول جلساتنا عما قريب لمخابر ومنابر ومحاكم ما علينا إلا حسن الاستماع والتصفيق الحار

-لا مشكلة فالأم غالباً ما تُراعى وتلعب دور البريء دون اتهام في تلك الجلسات يؤخذ رأيها بعين الاعتبار لا شك في ذلك أليس كذلك أيها العريس

-بالطبع يا أمي ومن أين لأدهم أن يأتي بتلك المهارة والفصاحة إن لم يكن له أمٌ ناضجة وأبٌ يحمل من الثقافة أكثر من عدد شعر رأسه إن كان بالوسع عدّه أنسيتم الكتب الأسبوعية والكتب التي تناوبتم وأخي قصي على قراءتها لي من نعومة أظافري
كما أنه يا أبي ما يجعلني أُقبل على هذا المستقبل الوردي معها هو حبها لمَن هم حولها فلديها من الأصدقاء أكثر من عدد أحفادك في الحلم من كافة المجالات تملك صديقات مهندسين أطباء ومعلمين وأسماء أعلم مني بها
أما أنا فأكثر ما يثير دهشتي هو صبر سامر على تحمّلي كل هذا الوقت وتقلّب مزاجي فلا أجد عزائي عن قلّة معارفي إلا في هذا الصاحب الوفي ذو الحظ فأسكته سامر وأكمل
-الحظ الرائع والله إنّ مَن يعاشر هذا الشاب المعقد خارجياً وبداخله حليبٌ ناصعٌ بياضه لذو حظٍ عظيم
رد عدنان بعد أن كشف عن مشاعر ابنه الصادقة وقوة إرادته
-إذاً أخبرها وإيّانا موعد زفافكم لتحضير ما تمنّيتُه وأمك منذ طفولتك
قالها عدنان بكل فخرٍ وأمل أيقظ جوارح أدهم فراحت تتراقص فرحاً على الوتيرة نفسها التي نُطقت بها الجملة.

وفي اليوم الذي لم تشهد ليلته رفة عين أدهم حيث بقي كل الوقت يفكر ويبحث ثم يجد في بعض الأحيان ويكمل البحث في الأحيان الأخرى.
كانت لحظة الاعتراف قد حانت سيفصح أخيراً عن كل مشاعره حيث فاجأها مجدداً عندما اتصلت متوقعةً أن ترفع أسماء السماعة وتخبرها عن وفاة زينب الصديقة التي جمعتهم بها صداقةٌ قديمة فآلمها خبر الحادث الخطير الذي أصابها حين سارعت أم زينب بالاتصال بها وطلبها على الفور وهذا ما اضطرت أن تترك حفل أدهم لأجله كما قالت لها أن زينب ستخبرها عن سرٍ خطير ما سبق وذُكر أمامها.
قادت سيارتها بنفسها وبسرعةٍ جنونيّةٍ علّها تصل في الوقت الصح وقبل أن يفوت الأوان وصلت للمشفى والدموع قد نالت منها والحزن أخذ منها كل مأخذ
-زينب حبيبتي إنني هنا بجانبك ستشفين بإذن الله فالأقوياء أمثالك لا يستسلمون
نطقتْ زينب بضع كلماتٍ خرجت مع أنفاسها الأخيرة
-أختكِ تفارق الحياة وتُقبل على الموت أكثر من أي شيءٍ آخر سامحيني يا ضحى يا رفيقة روحي يشهد الله أني أحببتكِ قبل أن أعرف الحقيقة التي كثيراً ما أوجعتني وأكثر ما آلمني إخفاؤها عنكِ وفاة أبي رحمه الله وأبيكِ في اليوم ذاته واللحظة نفسها لم تكن صدفةٌ أبداً بل كان والدنا واحداً يا ضحى يا أختي وشقيقة عمري

ازدادت البرودة في يديها وشفتاها ترتجف مع وقع كلماتها على مسامع ضحى لم تنبس الأخرى ببنت شفة إلا بعد أن ارتخت يد زينب في يدها ما جعلها تطيح بقلبها للقاع البعيد وكأنها تمسك بقطعةٍ من الثلج لتذوب في يدها المجروحة ثم أغمضت عينيها وكأن السماء تنطبق على الأرض فجأة وتودي بما بينهما نحو الانعدام وسال الدم من فمها كنهرٍ جارٍ من جبلٍ شاهق ولفظتْ آخر نفَس بعد أن نطقت الشهادتين في حضن صاحبتها "أختها"

الصدمة التي ألمّت ب ضحى حوّلتها لآلة كهربائية قديمة نهشتها الرطوبة طيلة الشتاء فلم تترك فيها روحاً ولا حياة

تردد نفس الكلمتين كلما سألتها أمها

-ما بكِ

-لا شيء

كانت بأمسّ الحاجة ليدٍ تهزها بشدةٍ وعنف وتناولها كأساً من الماء فتخبرها أنها نامت طويلاً وبالغت في كوابيسها تطمئنها بأن كل ما حدث مجرد أضغاث أحلام ولكن شيئاً كهذا لم يحدث فظلت على حالها هذا إلى اليوم التالي حيث قررت أن تخبر أسماء بكل شيء لتساعدها للخروج من المتاهة اللانهائيّة وتستمد منها القوة وتستعيد ما فقدته من نفسها؛ حملت سماعة الهاتف وطلبت رقم أسماء الذي حفظته عن ظهر قلب وكانت الصدمة آنذاك عندما رد أدهم ولم ينتظر صوتها قبل أن يفرغ ما بجعبته في الوقت غير المناسب على الإطلاق

وما كان منها إلا أن انهارت وانهمرت دموعها من فيض أجفانها وخرّت باكيةً على سماعة الهاتف فانتبه أدهم أنه أثقل عليها وسارع بالاعتذار ولكنها أيضاً لم تقدر على الرد

نادى أسماء بصوتٍ يرتجف لترد على صديقتها شعرت أسماء باسمها أول مرةٍ يُنطق بهذا الشكل ومن أدهم تحديداً فتنبّأتْ بخبرٍ سيء قاب قوسين أو أدنى

تعجّلت بخطواتها دون أن تنشف الماء على يديها فقد كانت تغسل الفاكهة وتعدّها للسهرة العائلية كما اعتادت كل يوم.

ركضت إليه فوجدته مهموماً شاحب الوجه وكأن كارثةً ما حدثت قبيل قليل ولم تنتهِ بعد

أخذت منه سماعة الهاتف وقالت بصوتٍ يشوبه القلق

-ضحى أليس كذلك!!

كيف حالكِ عساكِ بخير

أجابتها ضحى من بين انتحابها ودموعها استطاعت أن تفهم منها اسم زينب

-اهدئي قليلاً علّ بطلة روايتكِ قد فارقت حبيبها أم أن دعوةً ما استلمتِ زمامها ولم تكسبيها أخبريني

حاولت بجملتها الأخيرة أن تطمئن قلبها وتطفئ النار التي أُوقدت في صدرها علّه خير

- زينب ماتت يا أسماء تركتنا ورحلت قد سبقتنا إلى النهاية وكم تنافسنا منذ الصغر و.. و...

-ما الذي تقولينه ضحى أتعين مدى خطورة ما تقولين

-البارحة وهي عائدةٌ إلى منزلها من العمل ضربتها سيارةٌ رعناء يقودها شابٌ لا شك أنه مجنون فارتطمت رأسها بالرصيف ونقلوها للمشفى حتى ماتت هناك بين ذراعَي

-حسبنا الله ونعم الوكيل صبّر الله قلب أمها على فراقها فأضحت وحيدةً بعدها لم يبقَ لها أحد فزوجها توفي قبل أعوام والآن زينب

-زوجها ذاك يا أسماء إنه..

-ما به زوجها رحمه الله

-إنه أبي يا أسماء

حاولت أن ترفع صوتها وتلفظ كل حروف الكلمة لتسمعها هي وتستوعبها قبل أسماء

-ماذا!! أبوكِ!! هوّني عليكِ سآتيكِ انتظري وصولي مسافة الطريق وأكون عندكِ

حاول أدهم جاهداً أن يفهم الحديث الذي دار بين أسماء وضحى فتمكّن من معرفة أن إحدى صديقاتهنّ قد توفيت.

عرض على أسماء أن يوصلها بنفسه فحالتها تثير القلق ووافقت من فورها على أمل أن يفهم تفاصيل القصة منها في الطريق.

-أهناكَ ما يستدعي الخوف فقد سمعتكِ تقولين حادث؛ ما الأمر!

-نعم يا أدهم صديقة طفولتنا زينب تعرفها جيداً ماتت جراء حادثٍ مُريع

وخرّت باكيةً على صدره وهو يربّت على قلبها فزاد من سرعته وأوصلها لمنزل ضحى وكم تمنى أن يخرج لها بنفسه فيبدو أنها أكثر تعباً من أسماء
صعدت أسماء وشعرت عند كل درجة وكأنها تصعد جبلاً ضخماً شديد الوعورة إلى أن وصلت واحتضنت ضحى مع كل خيباتها وأوجاعها كما بلّلت دموعها كتف صاحبتها وأحرقتها دموع ضحى المنهمرة بغزارة على قميصها بلا انقطاع.
-أسماء أرجوكِ لا تتركيني بعد الآن ألا يكفي أن مريم قد اختفت وخطّها مقفولٌ لم ترد على المكالمات التي قمت بها
إنني أحتاجكما بجانبي
أومأت أسماء بالقبول ومع ابتسامةٍ كان اصطناعها أصعب من كل سنواتها الدراسيّة الهندسيّة قالت
-ما سمعته قبيل لحظات صحيح
-لستُ أدري تائهةٌ وضائعة منذ اللحظة تلك لا أجد لنفسي وجهةً وطريقي قد طال وأُغلق في نهايته
-استعيني بالله ولا داعي للقلق أخبريني التفاصيل
-عندما كنا البارحة عندكم في الحفل جاءني اتصالٌ من أمها تخبرني بحادث ابنتها وتطلب ذهابي بأسرع وقتٍ ممكن وما كان بوسعي أن أخبركِ فأعكّر مزاجكِ قبل أن أطمئن هكذا كان تخطيطي قبل أن أصل للمشفى وتخبرني وهي تنازع الموت والحياة معاً أنها أختي من الأب نفسه وماتت على صدري قبل أن تشرح لي أي

شيء ثم عدتُ إلى البيت هائمةً على وجهي لا أستطيع التفكير بشيء حتى اتصلتُ بك
-والله إنه لأمرٌ جلل ولكنه سهلٌ عند الله لا تخافي وتعالي معي الآن
أعدّت لها طعاماً بسيطاً مما وجدته حاضراً في البيت بينما كانت الأخرى تتوضأ قبل أن تصلي ركعتين يريح الله بهما قلبها المكلوم
-بالله عليكِ أترين بإمكاني أن أتناول وجبةً كهذه وأنا على هذا الحال منهكةٌ حدّ الموت لا بل الموت أكثر راحةً مما أنا فيه وكأن السيارة قد ارتطمت بي لا بزينب التي هي أختي دعيني أجد حلاً لما يدور في رأسي ويمكث هناك يكاد أن يقتلني فعلاً ثم إنني لم أرَ قط طعاماً يركض في الشوارع هرباً من جائع
-سنجد الحل معاً أعرف وجعكِ هذا جيداً بل ولدي أضعافه ولكنّ الطعام ثم التفكير
أكلت ضحى بضع لقيماتٍ شعرتْ بمرارتها وغصّت بالأخيرة حتى حمدت الله وسألت أسماء عن الخطة التي لا بدّ وأنها قد وضعتها في رأسها
-الآن وبعد أن انتهيتِ من وجبتك دعيني أخبرك أنني لا أراه مناسباً إخبارنا الخالة رائدة بما حدث حتى نعرف المزيد فمن غير المعقول أن تكون على درايةٍ بالقصة طيلة السنوات التي قضت وتخفيها عنكِ وأنتِ وحيدتها أظنّ والله أعلم أنها لا تعرف شيئاً من هذا وبرأيي علينا الذهاب للسيدة سامية نواسيها بفقيدتها ونفهم منها المزيد

ذهبت ضحى بصحبة أسماء إلى منزل سامية ولاحظت أسماء كيف تحتضن سامية صديقتها ضحى وقد بان عليها حنان الأمهات
فانتظروا حتى انتهى العزاء وغادر كافة الناس حيث لم يبقَ سوى ضحى وأسماء وأم فقيدتهم سامية
أعانوها على قضاء حوائجها وبكَوا معها فتصابَرن على حرقة الفقد التي تنهش أرواحهن
فتحت ضحى الموضوع بقليلٍ من الكلمات التي قالتها زينب لحظة الوداع الأخير ولم تشرح أو تزد بشيءٍ عن الذي قالتْه زينب وهي تحتضر
-إذاً لا بد أن أكشف لكِ الحقيقة كاملةً ولا داعي لإخفائها بعد اليوم ولكن لي شرطٌ لا أتكلم إلا بعد أن تقبلي فيه
-وشرطٌ أيضاً ألا يكفيكِ كل هذا أتودّي لو أنني مَن متُ وبقيت كي يرتاح قلبك ما الذي فعلتُه وأي ذنبٍ ارتكبتُه لتكون العقوبة بهذه القساوة
سارعتْ أسماء في إنقاذ الموقف
-اهدئي يا ضحى دعينا نعرف السر المخبَّأ طيلة السنوات الماضية؛ ما هو شرطكِ خالتي
-أن يبقى السر سراً بيننا ولا يُذاع وبشكلٍ خاص لا أريد لرائدة أن تعرف أي شيء
ردت أسماء بينما كانت ضحى تمسح دمعاتها المتوالية
-نعدكِ بذلك فقط أخبرينا وأوقفي حيرتنا
-أبوكِ يا ضحى تزوج من أمك بعد قصة حبٍ عظيمة لم يشهد أهل القرية مثلها من قبل ولا من بعد حتى توفي رحمه الله

لكنه حلم بأن يكون أباً منذ الصغر حيث كان جدك وكل مَن هم يعرفوه ينادونه بأبي الضحى وقد قضت أمك سنواتها الزوجية الخمسة بلا إنجاب كما أن الأطباء قطعوا خيط الأمل الذي تمسّكا فيه واستحال حملها كما وصف أبوكِ وكان شاباً وسيماً تعشقه كل فتيات ضيعتنا له سحرٌ خاصٌ جداً يجعله مميزاً عن غيره أظنكِ مثله كما كانت زينب أيضاً له عينان كعينيكِ تطلّ البراءة من بريقهما

لن أطيل الحديث عليكِ فواضحٌ أنكِ منهكة

جاء عمي خالد رحمه الله يطلب يدي من أبي لأكون حرم السيد رياض الشامي وما كان لي إلا أن أوافق على طلبه من فوري وإن كنتُ على يقينٍ بحبه لأمك الأستاذة رائدة التي ترك من أجلها ومستقبلها حياة الريف وصار يطلّ بين فترةٍ وأخرى على أهله؛ وفي شهري الأول بعد أن تزوجتُ من أبيكِ شريطة ألا تعرف أمك بهذا الزواج بأي شكلٍ من الأشكال حملتُ بابنتنا الأولى والأخيرة زينب التي صارت رفيقة عمري فيما بعد وحبيبة والدها فكانت فرحته بها لا تشبهها فرحةٌ أبداً

وبعد انقضاء شهرين من حملي فقط جاء يخبرني بحمل زوجته وحبيبته التي ستجعله أباً بعد كل السنين تلك فتقاسمنا الفرح فيما بيننا وأحسن أبوكِ لي وابنته طيلة حياته من ناحية الدخل المالي فكان يسدّد أقساط زينب المدرسيّة بانتظام ويشتري لنا ملابس الأعياد والطعام اليومي لم يقصّر بحقّنا قط

-لماذا لم تخبروننـي ولا أخبر أمي كيف لكم أن تخفون شيئاً كهذا عني
-أصرّ أن يخفي الأمر عنكِ وعن زينب خشيةَ أن تخبريها فهي مؤنستكِ الوحيدة ويستحيل ألا تكشفي لها السر الذي خبأناه كل هذا الوقت
وقد كان أكثر ما يرعبه معرفة أمك بزواجه ثانيةً الزواج المحلل في الشرع الإسلامي غير أنه رآه مخالفاً لإخلاصه ومروءته كرجلٍ أقسم ألا ينظر بوجه امرأةٍ غير زوجته وحبيبته ثم فعل.
وسارعت بدمعاتها الحارة تحتضن صديقتَي ابنتها المقربتَين كما وعدتها ضحى أن تحفظ سرها وتذكر أختها بالخير طيلة عمرها.
شعر أدهم بقلقٍ شديد على وضع أسماء وضحى فاستعان بسامر الذي ودّع مريم بعد أن اتفقا على الغداء معاً رغم أنهما لا يتفارقان تقريباً طوال النهار وطلب منه أن يقعد في دكان أبيه يسدّ محله ريثما يقضي أمراً مستعجلاً قد أهمّه وانتبه سامر له
-ما بك أحصل شيءٌ سيء
-سأخبرك لاحقاً دعني الآن أمضي
-اذهب وانتبه لنفسك فإن كان لي دورٌ لا توفّرني أبداً إنني هنا من أجلك
-حفظك الله
ثم عاد إلى بيت ضحى حيث اجتمع بها وأسماء في مدخل المبنى ورأى انتفاخاً في عينيهما وقد لاحظ بحّة صوتيهما

-عظّم الله أجركم وأحسن عزاءكم فيمَن فقدتم نسأل الله أن يجعل روحها في الجنة.
-سلمكَ الله انتبهوا لنفسكم في الطريق وأوصلوا تحياتي لأبويكما
وما كان بوسع أسماء أن ترد عليها حتى أجابها أدهم بابتسامةٍ افتعلها للمجاملة وليس إلا فهو من الداخل يحترق توتراً وألماً لما رآه من حالة أحبّ فتاتَين على قلبه
وعاد برفقة أسماء إلى المنزل حيث انتهت منال من إعدادها للطعام وقد ساعدتها مها في تحضيره؛ استقبلت منال ابنتها بقبلةٍ دافئة كما جرت العادة منذ الصغر ثم راحت تواسيها
-هذه سنة الكون يا حبيبتي فلتصبري وتحتسبيها عند الله شهيدةً في عز شبابها
غسلت أسماء وجهها الحار وكأنها قد انتهت من معركةٍ كبرى قبل دقائق ثم تنهّدتْ وراحت تصلي العصر وقد تأخرت في صلاتها للمرة الأولى وفور انتهائها ذهبت تتناول الغداء مع أهلها وهي تخبرهم بكل ما حصل بعد أن حذرتهم من إخبار رائدة والدة ضحى.
اتصل سامر بأدهم ليخبره بأنه سيتقدم مع أبيه جواد وعمه عدنان ولا شك رفيق القلب أدهم لخطبة مريم وطلب منه أن يخبر والده ليتجهّز يوم الخميس في تمام الساعة السادسة مساءً.
-وأخيراً خبرٌ سار يا صديقي كدتُ أجزم أنني لن أسمع أخباراً جميلة أبداً سنفرح بكَ دكتور سامر

وأطال كلمة دكتور بنبرةٍ مرحةٍ طفولية
-ستفرح بي لا تبتئس يا صاحبي سأتزوج وتصير عماً فضلاً على أن تصير أباً
-يا سابقي بكل شيء مالك القلوب سأفعل بعدك تقريباً
ضحك سامر من أعماقه بصوتٍ جهوريٍ مرتفع
-فاحسدني إذاً ما الذي تنتظره لِمَ لا تفعل حتى الآن وما الذي يمنعك ألستُ المنافس القوي الذي يُخشى منه
-لا أبداً أنت مَن أخشى عليك لا منك أخشى النسيم أن يخدشك أرأيت بعمرك أحداً يخاف نفسه
-تلك هي الدراما التي تلجأ إليها لأنصرف عن معاتبتك وأغرق في موجات غزلك أعانها الله مَن ستكونَ من نصيبها
أنسَيْتَني ما كنتُ أرتّبه؛ أخبر أبيك سادسة وخميس
-هكذا إذاً قبل أن تتزوج تختصر الكلام فكيف وإن سرقتْكَ مني
-لا يا حبيبتي لا تخافي فأنتِ حبي الأول وأنا ملك يديكِ
-زد من سخريتك هذه علّها تفر منك ومنها بعد الزواج
-لا لن أكثر منها معها
-اتفقنا إذاً سادسة وخميس
-تماماً
ومع قول ضحى
-قد تأخر ثلاثين دقيقة على الموعد وهذا في المادة رقم مئتين وأربعة من قانون العقوبات المصغّرة الذي ينصّ على أن يُعاقب المذنب بابتسامةٍ بريئة تفتك بضميره فيندم على تأخيره

ضحكت ضحى
-ابتسامةٌ فقط أم تقديم فنجان القهوة الشهيّة ليتلذّذ بها مع وجع الضمير
رن جرس الباب وسارع سليمان والد مريم لفتحه واستقبال الخاطب مع أهله وانتهت الزيارة بقبول الأهل وتحديد موعد الخطوبة ومن ثم الزفاف فقد اتفق الطرفان على كل الأمور.
خلال الأسبوع الذي سبق خطبة مريم من سامر دعا سليمان أقاربه وتجهّز الجميع لحفلٍ كبير ظهرت فيه مريم ملكةً للسلطان الطبيب سامر كعصفورين حلّقا معاً وحطّا على نفس الغصن وفي هذه الفترة كانت ضحى قد فكرت في الأمر استشارت مَن تثق بهم واستخارت مَن هو أجلّ وأعظم في أمرها وفي يوم الخطبة تقربت من أدهم سحبته من كم قميصه بينما كان واقفاً إلى جانب سامر لتسأله
-أما زال العرض قائماً وحتى الآن فإن فارس أحلامي مستعداً لعلاقةٍ حياتيةٍ تجمعني به أم أنه قد تراجع عن كل التفاصيل التي سردها بالأمس
-بلى والله إنني منتظرٌ حتى آخر عمري تلك الدقيقة التي ستقطعين فيها سلسلة أحلامي الخيالية لتثبتي واقعيتها
-عذراً على تأخر ردي فما كان بالوسع أن أتخذ قراراً كهذا في تلك الظروف التي عرفتها فاعذرني أرجوك
-أعلم لا حرج فالأمور الجميلة غالباً ما ننتظرها طويلاً لتحدث؛ إن لم تمانعي فأخبري أمكِ بقدومنا لطلب يدكِ

منها في الأسبوع القادم ريثما أحضّر نفسي وتتجهزون للمراسم المعتادة.
حمرةٌ لطيفة اعتلت وجنتيها فأضفت رونقاً عذباً على وجهها الملائكي الذي يشعّ براءةً طوال الوقت وأومأت له موافقةً على طلبه ثم راحت تهمس في أذن أمها لتبثّ لها الخبر على طبقٍ من الخجل والحب.
وجرت الأمور بسرعةٍ مبالغٌ فيها على غير العادة وهذا ما أصاب أسماء بالخوف والأرق فلم يعد نومها كما كان ولا صحوها الذي يسيطر عليه الشرود الدائم ثمة أمرٍ خطير سيحدث عما قريب ولكنها لا تعرف أي شيءٍ هذا ومدى خطورته جهلته أيضاً
وما كان بالوسع أن تخبّئ مخاوفها أكثر ومن الصعب أن تفصح عنها فما كان لها إلا أن جاءت بابن أخيها عدنان الصغير البريء وراحت تقصّ عليه ما تشعر به ويكاد أن يخنقها
-بالله عليك يا عدنان ما الذي عليّ القيام به وقد خشيتُ المستقبل المجهول لا أدري لماذا ولكنها عائلتنا تحديداً ما سبق لها أن تُحدث كل تلك المناسبات والأفراح والأتراح وبسرعةٍ كهذه دون أي عقبات أتنبأ يا صغيري بوقوع كارثةٍ مريعة أود لو أنها مجرد أوهام لا أكثر لكنّ هذا الشعور عالقٌ في تلافيف ذهني وطيّات فكري يلاحقني حيث كنت فماذا عساني فاعلة ناشدتكَ الله يا ابن أخي أن تشور على عمتك التائهة والخائفة حدّ الهروب

وما كان لعدنان أن يرد بالكلمات فما زال ابن شهورٍ عشر لكنه ابتسم بإلهامٍ من الله وابتسامته تلك كانت كفيلة بتهدئتها إلى حدٍ ما. ومع بداية الربيع كان الزفاف المشترك وقد زادت وروده وردتين بيضاوين جميلتين تُزف إلى زوجَيهما حيث تعاهد سامر وأدهم منذ الصغر أن يتزوجا في اليوم نفسه كما مر معهما بفيلمٍ قديمٍ حضروه مسبقاً وتحقق ما طمحوا إليه بمشيئة الله وكان حفل الزفاف من أجمل الاحتفالات التي شهدها التاريخ إذ تجمّلت كلٌ من ضحى ومريم بأناقةٍ مذهلة وكان ثوبيهما مزركشَين بالحياء والسعادة

وسُجل اسم مريم مع سامر واسم ضحى مع أدهم أما أسماء فقد كانت أشد فرحاً من العروس نفسها.

تشارك أدهم وزوجته مع أهله في السكن وازدادت علاقة أسماء بضحى قوةً وصلابة حيث بدأت القرابة تلعب دورها كما عاشت ضحى طفولتها مجدداً مع عدنان ابن قصي ومها.

واتفقت أسماء مع ضحى على زيارة السيدة سامية في منزلها وقضاء بعض الوقت في الحديث معها وتسليتها بين الفترة والأخرى.

وجاء اليوم الذي سيشهد على سعادة سامر ومريم ومقدمة حياتهما المخمليّة حين عرفت مريم بشراها أنها تحمل جنيناً في رحمها وما أجمل تلك اللحظة لتعيش أحلى المشاعر تلك الأمومة التي لم تخطر لها في بالٍ من قبل وحين تأكدت سارعت تخبر زوجها؛ مع حلول المساء دخل وبيده قالب الحلوى وعلبةٍ كرتونيّةٍ أخرى

يحملها ليقدمها لمريم إذ لا بد له من إهداء زوجته هدية ربحها الدعوى وقد منّ الله عليها بالنجاح وقت استلمت وزميلتها ضحى القضية الأكثر تعقيداً بنسبة أملٍ ضئيلةٍ وتكاد أن تنعدم وسهرتا معاً ليالٍ عديدة رغم أنهما ما زالتا عروسين

ناولها ما حمله في الطريق مرفقاً هديته بابتسامةٍ تحمل على جناحيها الحب والدفء

-مباركٌ علينا نجاحكِ يا حبيبتي

لترد عليه وبالطريقة نفسها

-بل ومباركٌ علينا معاً شيءٌ آخر

-ما هو

-طفلنا القادم فأنا أحمله هنا

وأشارت بإصبعها إلى بطنها وفي هذه اللحظة تحديداً انهمرت دموع سامر التي لا تنزل إلا بمعجزة وهو يحمد الله وسرعان ما هنّأها واتصل بأدهم يخبره وقبل أن ينطق بادر أدهم بتقديم المباركات والتهاني فقد أعلمته ضحى قبيل دقائق.

وبعد ساعات قدم جواد لزيارة ابنه وكنته وحفيده الجديد كما سارع أدهم وزوجته للقدوم إليهم وتهنأتهم وجهاً لوجه أشد حلاوةً ولذة من التواصل الهاتفي

بعد دقائق الاستقبال والمباركات فتحت ضحى سيرة تسمية المولود أو الجنين الذي لم يولد بعد وحتى قبل أن يُعرف جنسه

ليقول سامر وهو ينظر في عينَي مريم

-إن كان ذكراً نسميه جواد على اسم جده

فابتسمت مريم بقبول وقبل أن تبدي رأيها قال جواد
-لا لا داعي لهذا أسموه ما شئتم فأنا كما تعلم يا سامر لا أحمل تلك العقائد على عاتقي ولا ألقي للعادات هذه بالاً فإنه لا يهمني أن يحمل حفيدي اسمي نفسه بالقدر الذي يهمني خُلقه وتربيته الصالحة على الوجه الحسن والتي تتناسب مع بيئتنا وهنا أكملت مريم
-أتشرف يا عمي أن يحمل ابني اسم جده ولكم أتمنى أن يمنّ الله عليه بأخلاقٍ ودينٍ ورقيٍ كما وهبك ولكنني أحسبها فتاةً لا ذكر كل الأمارات تدلّ على أنها أنثى إلا إنني أودّ أن نسميها ملاك إن لم يكن لديكم مانع
فرد عليها أدهم بشيءٍ من الضحك
-نعم نسميها ملاك لتكون ملاكاً يمشي في الأرض ويفتك في القلوب ويفعل بها الأفاعيل مثل صاحبي تماماً
وعقّب كلامه بغمزةٍ لسامر وابتسامة أما سامر فقد ضحك لحال أدهم وقد تغير فيه الكثير بعد زواجه من ضحى فصار أكثر مرحاً وحيوية وقال متجاهلاً مزاح أدهم
-إذاً ملاكٌ في بيتي يحمل ملاكاً في جسده
وأكملت ضحى
-ولكن الملاك الأم ستنجب بعد فترة مَن تقاسمها في كل شيء وقد تربطني مع الملاك الابنة صداقةٌ متينة وأقدّم استقالتي لغيرها
فتكلّفت مريم الهدوء وحاولت إخفاء غيرتها وهي تقول
-حبيبتي لن تبعدني عنكِ طفلةٌ أنجبتها بنفسي وإن فعلتْ سأعطيكِ إياها وأستريح منكما معاً كما أنني سأنصرف

للعمل والبيت ألا يكفي أننا نعمل طوال الوقت معاً وكثيراً ما نتحادث ونلتقي
-هكذا إذاً تسمينها استراحة وأسميها الفراق
ليضحك سامر ويقول بصوتٍ عالٍ
-لا لم يكن أدهم المتأثر الوحيد بهذا الزواج بل وامرأته صارت أكثر شبهاً له
والتفت لرفيقه
-لماذا لم تخبرني أن الدراما التي تؤول إليها معظم أحاديثنا تنتقل بالعدوى
-عرفتها الآن فيها والله لم ألاحظها من قبل وابتسم لتنتهي الزيارة ويعود كلٌ منهم إلى منزله
وفي الصباح التالي ذهب سامر مع أدهم الذي صار مديراً للمشفى الجديد حيث تم بناؤه وأول مَن أسّسه وعمل فيه الدكتور أيمن النور ومن ثم اختبر أدهم وسامر ليولّيهم إدارة شؤون المشفى حيث أنه انشغل في الكثير من المهام في بلدٍ أجنبي ووثق في طالبيه وكانا عند الثقة.
دخلت أسماء غرفة ضحى ولأول مرة دون أن تطرق الباب وكانت الأخرى تصلي فرضها فما قدرت أسماء أن تحجم عن البكاء أكثر بل بكيت وبحرقةٍ ومرارة صارت تنتحب بشكلٍ مخيف جعل أسماء تسرّع صلاتها وقبل أن تسألها عن سبب بكائها احتضنتها بحرارةٍ وحنو لتفصح أسماء عن كل ما يخيفها
-خائفةٌ أنا يا ضحى أتشعرين بحالي

-أشعر بكِ يا رفيقتي هوّني عليكِ فكل شيءٍ إن شاء الله على ما يُرام ثم ما الذي يخيف مهندستي الذكية لأقطعنّ رأسه وأجعله عبرةً لمَن يعتبر
-المستقبل إن استطعتِ أن تميزي رأسه عن سفل قدميه فافعلي أسألكِ بالله
فإني أخاف المستقبل خوف المقتول من القاتل
مسحت ضحى دمعات صاحبتها الساخنة وكادت أن تُذيب جلد أصابعها الرقيق وهي تربّت على قلبها.
-حبيبتي عن أي مستقبلٍ تتحدثين وكل ما حصل معنا في الفترة الأخيرة يحمل البشائر والخير
-أخاف وقوع الكارثة مجهولة الأحداث لستُ أدري مصدر ذاك الشعور الذي رسخ بي ويأبى الخروج بشتى الوسائل.
-لا شيء من هذا سيحدث صدقيني وثقي بالله أولاً ظني به خيراً ولن يخيبكِ فهو الكريم الذي لا يخذل ولا يردكِ خائبةً من وراء بابه
ثم إن هذه المرة الأخيرة التي تخبئين فيها عن صديقتك ما يرهقك ويؤلمك إنني هنا من أجلك إياكِ أن تنسي
-إن شاء الله خيرٌ سيكون
ومع ابتسامة ضحى وتنهيدة أسماء دخل أدهم بلطفٍ ومرح ينادي بأعلى صوته
-في غرفتي الحبيبتين الجميلتين أحلى وأرقّ نساء الأرض وأقربهنّ إلى قلبي؛ أين أمي
-في غرفتها تداعب عدنان وتلاعبه والآن ستقوم الحبيبتان بإحضار الغداء لحبيبهما

-فلتفعلن لأن حبيبكما يكاد يقتله الجوع.
دخل أدهم المشفى ينادي بألمٍ وخوف
-سامر أين أنت يا سامر
-فركض سامر مذهولاً من مشهد صاحبه وسهام النار تُطلق من عينيه أول مرةٍ يراه بهذا المنظر
-ما بكَ أخبرني لقد أوقعت قلبي عمي عدنان خالتي منال بخير!! قصي أم ضحى أجبني مالك ما الذي ألجمكَ هكذا
-الجميع بخير إلا أنا فزوجتي أقبلت على الإنجاب
ثم سكت بطريقةٍ مثيرة للقلق والخوف
-وماذا بعد
-لا لا شيء هي في غرفة العمليات
-أصلحك الله ألهذا صرت بمنظرك المرعب ذاك وتصرخ بصوتٍ كهذا اهدأ ستلد كما فعلتْ بقية الأمهات كما أتت ستأتي بغيرها وكما ولدتك أمك ستلد زوجتك ابنك
-لكنها تتألم أتدرك ما أقول
وبقوله الأخير رجفت شفتاه واغرورقت عيناه بالدموع
-أعي جيداً يا صاحبي هوّن الله عليها وعليك أيها الطبيب رغم أني لولا مشروع الماجستير الذي قدمته وإياك لشككتُ في صحة كلمة طبيب تلك وكأنك لم ترَ مرضى يتألمون ولم تُجرِ العمليات الأشد خطورةً من الولادة آلاف المرات ألستَ مَن كان يعجب من حال قصي وزوجته أم أنها الوراثة

فابتسم بصعوبة ومسح وجهه بكفيه الأكثر اصفراراً
وكأنه لم يعرف الأكل لشهور
-أرسِل مريم لتعين أسماء بشأن ضحى
-إنهما معها فلا تقلق
وفي منتصف الليل مع انهمار المطر من غيوم السماء
حيث تقابلت دموع أدهم مع قطرات الماء على لوح
الزجاج أمامه وفي كل لحظة يكفكف دمعه ويتمتم
ببعض الأدعية حتى سمع صوته على يد سامر الرفيق
الحبيب ذاك الطفل الصغير ببياضٍ مبالغ فيه حاشاه ربنا
أن يبالغ أو يقصر ولكن حسام لحظة قدومه كان أشد
بياضاً من الثلج
دخلت أسماء ومريم غرفة صديقتهما ضحى في المشفى
الذي يديراه الطبيبان أدهم وسامر فوجدتاها مستلقيةً في
الفراش متوسدةً شعرها المسترسل كشلالٍ طويل
وبجانبها صغيرها الملاك
حسام حيث اتفقت وأدهم على اسمه قبل مجيئه بأيام
وأودعت الصديقتان الأكثر قرباً أختهما قبلةً على جبينها
بينما كان أدهم يبتهل بين أحضان سامر.
دخلت الفرحة ثانيةً بيت عدنان مع قدوم حسام الحفيد
الثاني إلا أن ابن عمه عدنان بدأت رياح الغيرة تعتريه
وبقوة وازدادت علاقة مها ب ضحى قوةً وحلاوة بعد
ولادتها فقد وجدت فيها أختها التي رحلت وتركتها
تنازع الحياة قبل أن تبدأ الحياة الوردية مع أدهم وأهله
أما أدهم وسامر فقد ثقل حملهما مع ازدياد رغدهما

بعد سنواتٍ ليست بالطويلة عاش فيها أدهم بين أصدقائه وأهله وطفلَيه وظلّتْ أسماء تكابد بمواجهة مخاوفها وتكثر من الصلاة والدعاء إلا إنها لم تخبر أحداً ثانيةً بحالها الدائم ذاك ربما هذه مجرد أعراض لمرضٍ ما؛ شاء الله أن تندلع حربٌ رزيلة تحرق الأخضر قبل اليابس تهجّر الملايين وتقتل الملايين ومن هنا ستأخذ روايتنا منحى مختلف

في بداية الأمر لم تعِ أفراد الحي المغذى من هذه الضربات الخفيفة ولَم تلقِ لها بالاً إلا القليل من الخوف الطبيعي حيث سمعوا لفترةٍ قصيرة بخطرٍ أمني يهدد بعض الأحياء.

خرج أدهم لشراء الخبز في يوم الوليمة حيث أنه دعا صديقه سامر وزوجته مريم لعشاءٍ عائلي لم تجتمع أفراده منذ مدة حيث أشغله العمل في العيادة التي افتتحها مؤخراً مع دوامه في المشفى وأثناء منتظراً دوره في الخبز سمع دويها في السماء فشعر بوخزةٍ في صدره كوخز الإبر أو أشد ألماً ثم ألقت الطائرة اللئيمة سمّها على حي الكواكب وبشارع مسكن سامر تحديداً سقطت النقود من يده سقوط حرف العلّة من المضارع المجزوم وسارع من فوره لمنزل صديقه سامر الذي كان على بعدٍ كبيرٍ من مسكنهم راح يركض ليطمئن قلبه الذي ارتاع منذ لحظات وصُبت فيه الجمرات الملتهبة على أمل الانطفاء وفي طريقه إلى سامر استوقفه مشهد شبّان الدفاع المدني وهم يقلّون المصابين بسياراتهم إلى

المشـــافي فركض إليهم باللا وعي وقد هبط قلبه إلى أن صـــار بين قدميه خوفاً من الآتي المريع حيث كانت أول مَن وقعت عيناه عليها ملاك ابنة ســـامر الطفلة الجميلة بضـــفائرها الطويلة التي تخلّلها التراب والدم ووجهها الجميل المخضّـــب بالدم الأحمر حمرة الورد ســـخونة الحرب حر تموز وقد غاب عنها وعيها بشكلٍ كامل بين كفَّي واحـدٍ من المُســـعفين ممـا جعلـه يهرول إليهـا ويحتضـــنها كما لو أنها قطعةٌ منه كما لو أنهم بتروا يده ورموها لـه يقبلها القبلـة الأخيرة كـان على أملٍ في أن تعيش ما لم ترَه من حياتها بعد فما زالت ابنة الرابعة ثم تنفّسـت الصـعداء على صـدره الملتهب وغطّت في نومٍ عميقٍ لا يقظة منه انتحب لموتها وســـرعان ما نســـي جثتها في حضـــنه وراح يفكّر كيف ســـيخبر ســـامر وقد كان متيقّناً أنه سيجده بين الأحياء

وقعد يلطم خدّه كالثكالى لما عجز عن فعله من إسعافٍ لطفلة رفيقه كما عاد إليه توازنه ونهض يطمئن على خليله سامر حيث تثاقلتْ خطواته في طريقه إليه فكان يبحث في كل مكان كيف السبيل إلى منزلٍ مدمر فكل المباني بدت له ضالّته أينما وجد الركام قال هذا إذاً وبحث بين الضحايا والمصابين عاش الخطر مع الخائفين واحتضره الموت آلاف المرات بين الأموات الذين توقفت قلوبهم وآخرين توقفت حياتهم دوناً عن قلوبهم كما هو الحال عند سامر حيث سمع صوته الذي حفظ نبرته عن ظهر قلب ينادي بحرقة إنه هنا لا بأس كل شيء سيكون بخير؛ ركض إليه ليجده مغبرّ الجبين

مُدمى اليدين ومن ساقه يسيل دماً وما أشبهه بدم صغيرته ملاك
-سامر أنا هنا أرجو أن تكون ومريم بخير
لم يجبه سامر على أي حال إلّا بعد أن نفضت يدها من بين يديه وهوَت أرضاً بعد انقطاع نبضها
-أعن رفيقك
رفع عينيه الداميتين إليه وكأنه يقتله بالسيف وما أسهل قتل السيوف ثم اقترب أكثر وساعده في إخراجها من تحت الركام والأحجار المبعثرة كان الحمل على قلوبهما أثقل من كل الحجارة فوقها التي انتزعاها شيئاً فشيئاً وتمكّنا من إخراجها كما لو أنهما أجرا عملية ولادة للمرة الأولى في حياتهما ولكن الجنين في هذه المرة ابنة الركام وبلغت في رحمه ستةً وعشرين عاماً
؛ كان من حصة سامر أن يقلّب رأسها بوجهها الملطّخ بالدم الذي أخفى هويتها عن الاثنين
وكان سامر قد حفظ تلك الملامح اللطيفة تلك العينين المغمضتين برمشيها الطويلين بغزارتهما وسوادهما وحاجبيها الذَين أشبها سيفين أو كما كان يخبرها سيفَين أشبها حاجبيها حيث أن الأشياء الجميلة كلها تشبه زوجته لا العكس
إلى أنه فضّل هذه المرة أن يتجاهل ما يميّزها به عن نساء الكون أجمع تفاصيلها التي عرفها وبدقة حاول ألا يتمعّن فيها خوفاً من أن تكون بين يديه فعلاً وما دام ذلك طويلاً حتى تحقّق أنها مريم التي يحتضنها بين يديه وقد صعدتْ روحها للسماء متخطّيةً كيانه

وكأن أدهم قد فاق من غيبوبته للتوّ فانتفض يحاول إسعافها بصدماتٍ كهربائية بلا كهرباء راح يضغط بيديه المرتجفتين على صدرها علّها تستعيد روحها التي خرجتْ ونفسَها الذي انقطع وكثيراً ما آلمته سنواته الثمانية في كلية الطب لينجز الآن إسعافاتٍ أولية لا تليق معها كلمة إنجاز فهي لا تجدي ولا تسمن من جوع فلتستقبل السماء شهيدةً جديدةً وليهنأ الموت بعروسةٍ شابة أما سامر فالصبر حليفه وسلوان الله على قلبه الذي ما عاد قلباً وقد حاول استيعاب الأمر فتاةٌ مزجاةٌ بين يديه ودّعته بمنظرٍ لا يليق بحبهما وما كان بباله أن تنسحب بالطريقة تلك وما كان بالوسع التحمل أكثر حيث علا نشيجه على صدر أدهم الذي بكى وكأن الدمع يزور عينيه لأول مرة وقد أحسنت عيناه الضيافة فأبى أن يغادر قبل أن يترك آثاره وذكرياته المريرة ثم أخذ بيد سامر وسحبا مريم يدفناها في الأرض التي لفظتها وأبت أن تستقبل حبّها وحشيشة قلبها في رقعةٍ واحدة دوى صدى صياحه ونشيجه في كل أركان حي الكواكب وما جاورها وهو ينفض عن وجه زوجته التراب الذي ألقاه أدهم وقد نسي أنه أباً لم يذكر في تلك اللحظات سوى محبوبته التي رحلت بتلك الطريقة البشعة وما أصعبه من رحيل

إلى أن أدهم لم ينسَ ملاك حيث دفنها وحيداً وقد مثّل القصف في جسدها أبشع المشاهد وكأنها غرفةٌ قديمة يستأجرها الغرباء ويلقون ما في جوفهم من مآسي وأحزان على جسمها الصغير اللين

-هوّن عليك يا صاحبي شهداء بإذن الله
لم ينتبه سامر بالحال لجمعه "شهداء" وأكمل منتحباً
-انتهت قصتنا إذاً لا معنى لخميسٍ لا فائدة من السادسة كيف لها أن تنتهي هنا
-قد غرستَ زرعاً في الجنة والحصاد سيكون لا محالة
-أخذت ربيع عمري ومضت وبتلك البرودة كم أنني ساذج حين عشقتُها كم صرتُ ضعيفاً هشاً قليل الحيلة دونها
-لا حول ولا قوة إلا بالله أنت أقوى مما تعتقد فلا تستسلم
-أي قوةٍ هذه وأي استسلام سألحق بها ولن أتردد وملاك أمانتك فاحفظها كبعض أولادك
-لن تفعل وإيمانك بالله لن تفعل بل ستعيش حياة قضيّتها؛ مَن أماتها لا يستحق المعيش أما ملاك فهي عند مَن يحفظها أكثر مني ومنك
-ما القصد ملاك عند ضحى أرسَلتْها مريم تعينها في عمر
-بل أعان الله طفلتك يا صاحبي باستضافتها
-لا تقل وتقتلني
-قلتها ملاكك انتقلت لعلياء ربها ورحمته وكلنا لاحقوها
-يااااالله ما هذا يكفي هنا أوقفوا التصوير انتهتِ المسرحية والحلقة الأخيرة قد فرغتُ منها هيا أعيدوا لي الأبطال أعيدوا لي مريم أرجعوا ملاك دعونا وشأننا
-اهدأ الآن اهدأ

وكان القصف يزيد ويقترب فأخذ أدهم صاحبه بثيابه الممزقة المبللة دماً ودمعاً وقد زرع رحيل عائلته ندبةً مستديمةً في قلبه

بعد أيامٍ من القصف العنيف على كل الأحياء دون أدنى استثناء استطاع أدهم أن ينفد بعائلته وبات الجميع بحالةٍ جسدية جيدة أما النفسية فحدِّث ولا حرج حيث أقلّ أهله جميعاً وكل مَن استطاع نقله مَن يلوذ بهم من أقارب ومعارف وشدّ الرّحال إلى مدينةٍ تبعد آلاف المترات عن بلدتهم وقد اتفق مع كل أهله أن يبقى موضوع استشهاد مريم وابنتها مخفيّاً عن ضحى فقلبها لا يتحمل صدمةً كهذه وقد أرهقها حملها في الطفل الثالث منذ الشهور الأولى وما زادها الخوف والخطر إلا تعباً ووهناً أما سؤالها عن مريم فقد سبقه جواب أدهم حين أخبرها

-تحدّث معي سامر وأخبرني عن الصاروخ الذي أودى بمنزله ودمر مبناه بالكامل ولحسن الحظ كتب الله لمريم وطفلتها المزيد من العمر فقد كانت تتسوق لتشتري لكِ هدية حملك

ثم لمس سامر خطورةً على حياتهم فأرسل ابنته وأمها إلى القاهرة حيث يسكن خاله مع زوجته

-كيف تخرج ولا تخبرني إذاً هي بخير لكنني لا أدري يا أدهم تلك القبضة في قلبي والشعور الرهيب الذي هز أركاني

-الجميع بخير أراكِ تتكلمين بخوفٍ مثلما فعلتْ أسماء من قبل أينتقل ذاك الشعور بالعدوى أم ماذا

ومع ابتسامةٍ مصطنعة حاول أن يقلّد سامر فيها وتنهّدتْ دمعاته قبل أن تشقّ طريقها إلى خدَّيه بعد أن أدرك الموقف وأعطاها ظهره على عجل

-حماها الله وصغيرتها وصاحبكَ المجنون هذا ما الذي يبقيه في حي الكواكب وقد ُدمّر بيته وسافرت زوجته ثم إنك أنت هنا ماذا يفعل وحده؛ لمَ رفض الخروج معنا وقد فعل والده

-سيلحق بنا لكنه منشغلٌ بعض الشيء هذه الفترة

-لا تتركه وحيداً فقد عرفتُ في قلبه حباً خالصاً لمريم فهو لا شكّ يفتقدها وطفلتها

-أنا معه؛ نعم يا حبيبتي لكنّ في القاهرة أمانهما وحمايتهما والحامي هو الله على كل حال.

كثيراً ما حاول أدهم أن يقنع سامر بالذهاب معهم فالخطر يزداد عليه في حي الكواكب كونهم يستهدفون المراكز الطبية حتى تلك التي عُلّق الدوام فيها لم تنفد من جرائمهم وما كانت هدفهم الوحيد بل كل رقعةٍ في هذا الحي تحديداً أضحت فريستهم.

-ما الذي بقي هنا لتفعله بالله عليك دلّني عمّا يبقيكَ بين هذه الأحجار المُخزية والتي تتساقط من حولك كقطعٍ من الثلج في كانون أيعجبك وضعك هكذا!!؛ إن لم تكن حياتك تعنيك فهي تهمني أنا

-مَن قال أنّ للأحجار هذه مكانةٌ في قلبي لأحزن على تساقطها جملةً أو فُراداً وما الذي ينتظرني هناك في تلك المدينة السوداء امرأةٌ حسناء تستقبلني بطبقٍ من الحساء

الشهي أم فتاةٌ تناديني أبي تعال لأريكَ ما رسمتُ في دفتري
-ما رأيكَ أن نكمل حديثنا هناك
-أللحديث بقية!! سأمكث هنا بين الدمار والبقايا حتى يحين أجلي ولا داعي أن تعرّض نفسك للخطر مجدداً حين يأذن الله لي بالرحيل ستعرف حتماً وحينها إن أردت المجيء لا مانع في أن تشيّعني بنفسك إلى قبري بجوار أسرتي بوجهٍ أخجل فيه لقائهم وقد عجزت عن إنقاذهم
-ألم تفق أنت هنا يا أخي هنا على هذه الأرض افتح عينيك ترى كمية الخطر حولك وهما في مكانٍ أفضل من أي مكانٍ على الأرض هما عند الرحمن الرحيم كفاك وهناً لا بدّ من الهروب للنجاة للحياة مع القضية
-هروب!!! وقضية!! أتهرب أيها السوبر مان وأي قضيةٍ هذه
-لن أدعك ولو كلّفني ذلك حياتي فلتفعل ما يطيب لك
-اذهب ولا تعد وإن نسيت صاحبك الذي فقد حصاد عمره لا لوم ولا حرج
-بل سأبقى ولكنه أباك يا سامر الذي ترك المدينة وخرج يبحث عنك هناك يحتاجك وبشده إن عجزتَ في إنقاذ أهلك فلن تعجز معه إن شاء الله أليس من أهلك أيضاً!! لا تكسر قلبه كما فعلت حفيدته وأمها
-أكسر!! ومنذ متى كنتُ أنا مَن يكسر أبكَ حرارةٌ أم ماذا

-وأنا يا صديقي ألا أجد عندك ذرة شفقةٍ على حالي أيها السند العظيم عد لي كما كنت دوماً فرأسي المضطرب يحتاج كتفك
-دعك من هذا وامضِ
-سأبقى هكذا بين أهلي وصاحب عمري بين الحرب والسلم الخطر والقهر أتراه سهلٌ علينا الرحيل وقد تركنا بيوتنا وما نحب فيها
-وحدي مَن أستحق الشفقة واترك سرد ما حدث لتدوّنه في التاريخ اذهب حيث شئت
أما أنا فباقٍ هنا
ومع جملته الأخيرة زاغ بصر أدهم وما عاد قادراً على سماع صاحبه فدارت به الدنيا مع صوت القذيفة الذي دوى في سمائهم ولم يصحُ حتى وجد نفسه بين يدي ضحى وقصي يقف بجانبها يتعجّل يقظته بترقّب أمه وأبيه؛ أسماء؛ مها الكل كان ينتظر ساعة صحوه من الإغماء وأول ما لفظه اسم سامر ليخبره قصي أنه بخير وقد رفض المجيء مع أحد شباب الدفاع المدني الذي أنقذه وأتى به إلى جلقة حيث سكان الكواكب نُقلوا جميعاً وبعد مضيّ أيام كان أدهم قد استعاد صحته وصار له مع أبيه الثاني "العم جواد" ما كان له مع حفيدته ملاك حيث فارق الحياة بين أحضانه مات هرماً يأساً ومر شريط الذكريات بباله منذ الطفولة مع العم جواد وابنه سامر

بكى أدهم لحظتها كما لم يبكِ من قبل وتذكر سامر الذي أبى وبشدة أن يساعد أبيه وفضّل المكوث بين القذائف والصواريخ على أن يصحبهم إلى جلقة

فقرر أن يحاول ثانيةً دون كللٍ أو ملل سيأتي بسامر حيث الأمان حيث النسيان والحياة فذهب لضحى وقد جربت شعور الفقد في أختها زينب والجرح ينزف داخلها على الدوام ينتحب لعمه جواد ويبكيه بألمٍ وقد عُقد لسانه وأفسح المجال لدموعه

ران الألم على الجميع في لحظة الوداع إلا إن أسماء التي تضفي السعادة والسكينة أينما حلّت قللت من ألم الفراق بملاطفتها أخيها

-الدكتور أدهم في حي الكواكب حيث النساء الفاتنات وما زالت الوسامة تأخذ منه كل مأخذ أعلينا أن نخاف الحرب أم الحب

ضحك أدهم ضحكته الجديدة الشاحبة التي حلّتْ مكان ضحكته العذبة

-لا يا عزيزتي قد خُطف القلب ولن يعود فالخاطف قويٌ جداً وقبضته شديدة حتى الآن لم يطلب الفدية ولا أظنه سيفعل فكيف للمخطوف أن يُشرع لجهةٍ أخرى

ردّتْ أسماء

-دراما كالعادة

ثم أكملت ضحى بحزنٍ فشلت في إخفائه

-سأحبك كل يومٍ أكثر ولكنني أخشى عليك من القصف هناك كيف ستصل وقد تعقدتِ المسألة أكثر حين مررنا

كانت الحواجز هي مَن ساعدتنا أما الآن أتضمن أن المعاملة نفسها في الدخول
-سأحاول ربما أنجح وما باليد حيلةٌ إلا المحاولة
تلامستْ روحيهما زوجان عاشقان متألمان وقد تكسّرتْ أجنحتهما في ظل تلك الحرب الغاشمة.
فأكمل قصي
-ولكنّ في هذا خطرٌ على حياتك ألا تصلكَ الأخبار
-لا يا أخي ما كتبه الله سيكون رفيقي بحاجتي ولن أبخل عليه بالدعم فإن حصل له أي مكروه وأنا هنا أخاف مساعدته لن أسامح نفسي أبداً
-ألا يكفيه صديقك هذا عناده فليعلم أن ما يفعله يسمى انتحار ولماذا لأن ما جرى
وقبل أن يكمل أنقذ عدنان الموقف بقوله
-اذهب يا بني حماك الله وإياه فالصديق وقت الضيق فنحن لا ندري يا قصي ما الذي ألمّ به ربما يكون في أشد حاجته لأدهم وأنا عرف تماماً أن عمله مع شباب الدفاع المدني عملٌ إنسانيٌ بحت وهو بالتأكيد سبب رفضه المجيء معنا.
تنهد أدهم مع قول أبيه وقد وقع قلبه حين كاد قصي أن يزلّ لسانه ويذكر ما جرى بوجود ضحى
ومع دخول منال ومعها ابنَي أدهم وابن عمهما قصي فسألت أدهم بعينين دامعتين
-أصحيحٌ يا بني أنك ذاهبٌ إلى حي الكواكب أم أن ما سمعته مجرد مزاح

-لا صحيحٌ ما عرفتيه سأذهب إن شاء الله كما فرض الواجب فما حياة الطبيب إن لم يعمل بمجاله مع أبناء حيّه وهم يحتضرون وكيف أقعد بينكم وبإمكاني أن أساعد الناس العالقة هناك مع الماضي والتي لن تقوى على الخروج وحدها وسامر أيضاً لا بدّ أن يعرف بوفاة أبيه

-وطفلَيك هذَين لمَن تتركهما ألا تخاف عليهما هناك مَن هو أهلٌ لهذه المساعدة التي تحكي عنها

-أعرف هذا يا أمي ابناي لم أتركهما سأعود إليكم إن قدّر الله ذلك ولن يكونا أغلى منكم أستودعكم عند الله وأسأله أن يشفي هذه البلاد وآتيكم لنعود سوياً لديارنا سأساعد حتى آخر زفرةٍ بي هكذا تربّيتُ بفضلكِ وزوجكِ

-فرد عدنان بنبرةٍ مرحة يطغي عليها الحزن أرادها ليطفأ العاصفة التي هبت على قلب منال بعد أن لمستْ إصراره وقوة عزيمته على المضيّ زحفاً في أسوأ الأحوال

-زوجها إذاً!! يا لها من خسارة تلك الشهور التسع وما هذا كله شيءٌ يُذكر أمام التعب معك في الإرضاع والسهر والتعليم تعرف أي تعليمٍ أقصد أليس كذلك ذاك الذي يكون في العامين من العمر

فضحك أدهم وأومأ لأمه لتبتسم بدورها بحرقةٍ لم تقدر على إخفائها وركضت إليه تحتضنه وتشمّ رائحته التي تشبه المطر حين يبلّل التراب وكأنها تمرّ بأفران حي الكواكب وتغرق في ريحها المتدفّق كانت عنقه التي

تقبلها وتلقي عليها دمعاتها أشد حرارةً من رغيف الخبز الطازج وما زال البخار يتمايل فوقه وراحت تقبل يديه كما يفعل بمشهدٍ أشد جمالاً وتناغماً من لوحات الفنانين ولن تأتِ بمثلها آلة تصويرٍ قط ولا بوسع أي رسامٍ ولو امتلك الموهبة والإبداع أن يجسّد تلك الأسطورة التي تحدث ولن يقدر على إظهار الكيمياء بينهما وكأنهما قطبَي مغناطيس تلاحما مع بدء التكوين كما لو أنه ملحٌ امتزج بسكرٍ وما عاد للناظر أن يميزهما عن بعض أكثرت منال بالدعاء لكل أولادها وكل مَن ظل بالحي كما أنها خصّت أدهم وسامر بالرضا والدعاء

ودّع أدهم عائلته واقتصر بذلك حيث أنه يكره فراقهم وطمأنهم بأنه عائدٌ لا ريب هكذا أخبره قلبه وقد وقف أمام ضحى المثيرة حالتها للبكاء وكاد أن يتراجع عن قراره حينما نظر في عينيها فاحتضنها كأحد أعضاء جسده والتي كانت أكثرها أهمية كما لو أنه يمسك بقلبه الملتهب ثم أوصاها بنفسها وأولادها كما أمن على أهله بوجودها وأسماء لن يضيعهم الله أما قصي فقد لحق به إلى موضع السيارة يسأله أن يرافقه ويلحّ كالأطفال فأبى أدهم وبشدة

-وأهلك يا قصي يحتاجون واحدٌ فينا زوجتك أبوَينا عائلتي أسماء كلهم ينادوك ولو لم يفعلون سأعود أعدك بذلك فقط ادع لنا وانتبه لنفسك وجميع أهلك يا سندي

-سأفعل رغماً عني فقلبي يحترق خوفاً عليك

-إن كان لي عمرٌ سأعيشه شاء مَن شاء وأبى مَن أبى وما ذهابي إلا لإنقاذ صاحبي وأبناء بلدتنا

-انتبه لصحتك واعتنِ به جيداً لا تفارقا بعضكما كلٌّ منكما بحاجة الآخر؛ سنلحق بكَ إن شاء الله
-الله أكرم مما نتصوّر ربما يكون ذلك بعد ساعاتٍ فقط بيده كل شيء ما بين الكاف والنون سيكون كل شيء على ما يرام
وبعد أن مشى مسافةٍ نحو السيارة وكاد أن يركبها ناداه قصي
-تعال أعدّل لك قبعتكَ هذه؛ لقد كبرتَ سريعاً أيها الشقي أعرف جيداً كم يعزّ عليك هذا الفراق ولكنني أود احتضانك فسامحني
-أما أنا فأود لو أنني أُدفن في حضنك ولن أبتعد أبداً أخي لو سمحت امسح دمعك فلا أريد أن أذكركَ إلا شامخاً صلباً وهذا الضعف لا يليق بمثلك
-أربعينيٌ أنا ولأول مرة أسمح لأحدٍ أن يلحظ دمعي لا مانع سأمسحها كما طلبت ولكنك ستعود
-ولن يراها أحدٌ بإذن الله حتى أنا وأنت لن نراها دعنا نتفق من الآن على ذلك اعتنِ بهيبتكَ كما كنتَ تفعل على الدوام
-سأحاول وتعيننني بنفسك
-إن شاء الله
-كما أخبرتُكَ جرّاحٌ لا عمل له إلا علاج الأمراض القلبية
-تماماً أستودعكم عند مَن لا تضيع عنده الودائع.
وفي طريقه إلى حي الكواكب حيث شقيق روحه يسكن استوقفه منظرٌ مأساويٌ ثقيل السيارات التي تقلّ

النازحين بمجموعاتٍ كبيرة فتحمل الأطفال دمياتها المغبرة والنساء مفاتيح منازلها على أمل العودة بعد أيام وإن طالت فأسابيع على أسوأ تقدير كما أنه شهد قهر الرجال الذي حدّثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث رأى في المشيب ألماً وكسراً ضاقت بهم الدنيا على رحابها وغُلّقت الأبواب في وجوههم وفي الشباب أملاً قد قُتل ونُسي دون تغسيلٍ ودفن ولكنه قتله بالحال قبل كل الضحايا التي سُجّلت.

مرّ بخيامٍ لأناسٍ مشرّدين لا لم يكونوا مشردين بل شُرّدوا مؤخراً لم يتسنَّ له الحديث معهم ومساندتهم فعانى ما عاناه من المشاهد المريعة التي لم يستطع أن يحرك فيها ساكناً وكلما اقترب من وجهته علا صوت القذائف أكثر؛ لولا إيمانه بالله ومن ثم القضية التي يسعى إليها ومتطلباته التي يتطلّع إليها وعلى رأسها إنقاذ صديقه وانتشال مَن رآهم في طريقه من جحيمهم لرجع من فوره حيث ترك أهله

وفي كل بضعة أمتار يستوقفه حاجزٌ لجيشٍ مختلف عن الذي سبقه فكلَّ وملَّ إخراج هويته وبطاقته النقابيّة التي حصل عليها في الكادر الطبي لكل حاجز كما سئم إعادة سرد التقرير ذاته

-طبيبٌ في مشفى الشفاء أعالج الأمراض القلبيّة وحسب فلم ولن أعالج مصابين الحرب لهم مَن اختصّ في ذلك وفي الحاجز قبل الأخير حيث اقترب من وجهته لم يقنعهم كلامه ولمسوا التلاعب في قصة الأمراض القلبية تلك فللون الرمادي كرهٌ خاص عندهم وتركوه

يقصّ عليهم مسألته ليعتقد أنهم مصدقوه ثم ألقوا القبض عليه بجريمة التذبذب وجرائم أخرى تُسجل فيما بعد وفي ذلك كان الخير كله سبحانه وتعالى لا يقدّر إلا الخير فقد استُهدفت سيارته بقذيفةٍ أدت لحرقها وتحويلها لرمادٍ متطاير كما استعمل العدو وسائله القذرة فأطلق الغازات السامة والمواد الكيماويّة في كل مكان من حي الكواكب وأحرق العشب في الأراضي

تعرّف أدهم في فترة سجنه على رجالٍ أقوياء العزيمة يكبحهم عدوان المجرمين الذين لن ينالوا شيئاً من الرغبات والآمال.

أبو أيمن وابن الهاشم وأبو عُبيد الله زياد وبسام والكثيرين فأدهم الذي أُضيف لمجموعتهم خلف قضبان السجن العتمة كان أصغرهم سناً وأكثرهم هدوءً حيث لم يعتد بعد أجواء السجن وما تكسب صاحبها من طبائع وبعد أيام اعتقاله الأولى وبعد أن جرّب كل وسائل التعذيب في جسده إلى أن فقد وعيه فتركوه وقد أتلفتْ صدمات الكهرباء أعصابه وقبضاتٍ من الحديد التفّت على يديه ورجليه وصدره العاري ثم أشعلوا النار في ظهره لم يذق ألماً كالذي جربه في السجن حتى أيام الحمى التي أصابته في طفولته ثم إنهم تركوه مزجياً كالأموات لا بل للأموات روحٌ قد خرجت أما روحه فما زالت ترافقه تتعذّب معه تتمزّق في جوفه حتى بعد وقتٍ استعاد فيه شيئاً من صحّته تعرّف على بسام وأخيه رامي وكانا من خيرة الرجال فقد رأى في بسام قصي الذي فارق لما يشبهه من رزانةٍ وبعد نظر وحلم كان

يجده وكأنه في أمريكا وكأنه يأكل في مطاعم باريس أو يتصوّر أمام برج ايفيل ولم يكن يبدو عليه قهر السجن لولا ذاك البريق في عينيه الذي مزج الألم بالحلم يبدو كمقبلٍ بشكلٍ دائم على البكاء فكان لأدهم في بسام أسوةٌ تساعده على الوقوف مجدداً.

-بسام الراعي وأخي رامي ألا تعرفنا عنك

-أدهم الحسن طبيبٌ جراح أتيتُ أساعد جرحى الحرب اللعينة هذه وأنتم كيف تصنعون ما الذي جاء بكم إلى هنا

-بارك الله فيك دكتور أدهم أنا أعمل في البناء والعمار لم يسعني أن أخبرك بأنني مهندسٌ معماري لأنني لم أتخرج من الكلية قبل أن أُرمى هنا

سكت بسام وقد لاحظ أدهم أنه يحمل الكثير من الهموم ولم ينهِ قصته بعد فأكمل رامي

-وأنا طالبٌ في كلية الحياة أدرس الدفاع عن النفس وأُدبر عن الظلم كما أُقبل على الحق المنتصر لا محالة في الكتب والجرائد بينما في الحياة فهناك حالة شك في أن ينتصر فعلاً أو يُصوّر على أنه قد انتصر عفواً يا صاحبي فأنا نجارٌ أساعد أخي بسام في عمله لا أكثر

-تشرفتُ بكما يا صاحبَي السجن أنتَ يا سكر ستكون رفيقي المفضّل وإن لم نمكث هنا طويلاً فما أكثر ما أعجبني أسلوبك الذي ذكرني بأسلوب شخصٍ عزيزٍ على قلبي وأنت أخي بسام ستكون كما كان لي قصي الأخ الأكثر خبرةً ودهاء

-بمَن ذكرتك بالمناسبة شرفٌ لي أن تكون صديقي

-أختي التي تصغرني بأعوام لها أسلوبك في الكلام نفسه وتحب النقد الساخر ذاك
هل أنتما متزوّجان؟
رد عليه رامي بعد أن أغمض بسام عينيه لدقائقٍ طويلة وكأنه يحاول أن ينسى شيئاً فشعر أدهم أنه وضع فوق جروح صديقه ملحاً ذوّاباً أحرقه فيه
-أنا متزوّجٌ ولدي ثلاثة أولاد أما بسام
قطع كلامه ووجه نظره إلى بسام الذي هربتْ من عينه دمعةٌ خاطفة ولكنه سرعان ما دارى الأمر ومسحها قبل أن تعجّل غيرها وقال بألمٍ شديد
-وأنا لدي زوجتين وستة أولاد الأربعة الأولى ذكور وبعدهم رُزقتُ بفتاتَين وعندما بدأت الحالة الأمنية تنحدر وتزداد سوءً شعرتُ بالخوف من فكرة فقدهم فهربت إليها بنفسي
ولم يستطع إكمال الحديث حيث بدأ ينتحب كأنه يُعيد المشهد ذاته في ذاكرته ويُعاد معه الشعور نفسه ليكمل رامي وهي يحتضنه
-اهدأ يا أخي رحمهم الله
فحدّق أدهم في عيني رامي يسأله أن ينكر ما سمع وقد زاد اتساع عينيه واحمرارهما
-ماذا أتقول يا رامي رحمهم الله مَن منهم بالضبط
-كلهم؛ بدأ القصف العنيف بالجويلة حيث كان يسكن أخي مع زوجتيه وأولاده فأخذهم إلى بيتٍ آخر بحي المانولتي بحثاً عن السلامة والأمن وفي لحظة نزوله

لاستلام مرتبه الشهري هوَت قذيفةٌ لعينة أودت بمبناهم الجديد وصار ركاماً بمَن فيه
بكى أدهم متخيلاً هول المنظر ولحظة الفاجعة الأليمة وأراد أن يسأله لا بل ووقف السؤال على رأس لسانه مَن تبقى وتذكر ما بدأ فيه رامي كلهم كانت كلهم هذه تحرقه كيف يمكن لعائلةٍ أن ترحل بالكامل أوَ يحدث شيءٌ من ذلك في الواقع وقد حسبها في الروايات أحداثاً لتجذب القارئ وتستبدّ في خياله ولكنه واقع شعر بسذاجته لبكائه عند ولادة زوجته طفلهما الأول عُقد لسانه ارتجف مع رعشة يدي رامي التي تطبطب على كتف بسام فظلّ باكياً بصمتٍ قاسٍ طبّق على صدره وكتم أنفاسه للحظاتٍ عصيبة وهو يتأمل بسام
وما كان لبسام إلى أن جفّف دمعه المتتابع كصنبور ماءٍ تعطّل بعد أن فُتح وصعب إغلاقه فعمل على إصلاحه قدر الإمكان وما زالت القطرات تنزف منه ببطء وأكمل القصة كما حدثت وكأنها قُبيل لحظات
-ثم عدتُ على عجلٍ حين اتصل بي جاري في المبنى المجاور يخبرني بطريقةٍ غير مباشرة إلا أن السهم الذي أصاب قلبي لم يخطئ فعرفت أن انهياراً ما ينتظرني وأي انهيارٍ كان
هز رأسه أدهم وكأن بسام ألجم لسانه بقصته فأكمل بسام سرد قصته بالتفصيل وما أشبه دمعه بدمع قصي الذي لمس الوداع الأخير في تلك الدمعات
-نعم عدتُ من فوري لأرى منزلنا الجميل الدافئ ركاماً ذاك الذي اتّسع لتسعة أشخاصٍ كان أنانيّاً فأبى الخسارة

وحده حتى أخذهم جميعاً لا بل ربحوا معاً وتركوني الخاسر الوحيد بعدهم ظللتُ واقفاً فوق ركامه ألطم كالنساء وأندب كالمجانين أضحك كالأطفال في العيد وأبكي كمذنبٍ سيق للقبر وهو عارفٌ تماماً أنه في النار سيُلقى اغتالني البرد لحظتها فرحتُ أرتجف كالعراة في الثلج حتى أخرجوهم لأنعم بدفء أجسادهم أو ما بقي من أجسادهم كانت الأشلاء تدلني وأفهمها جيداً عرفت فوراً كل قطعةٍ لمَن فيهم يد منال وخاتمها الذي ألبستُها إياه يوم خطوبتنا ما زال لامعاً في يدها ولكن المرة هذه لم يكن الذهب فيه الذي يلمع ولا الحجر الذي رُصّع فيه بل منحه دمها ذاك اللمعان أما حبيبتي الأخرى فكانت تتنفس وكنتُ على رأسها منتظراً حتى فتحت عينيها تناديني

-بسام أين أنا متُ أم ماذا

بعد أن دفنتُهم بعينَي إذ لم تساعدني يداي فحفروا قبورهم أمامي لا بل قبرٌ واحد حُفر لجميعهم وضعوهم وألقوا عليهم التراب فدفؤهم يكفي؛ ما كان للساني أن ينطق أو يرد على سؤالها وقد لفظها الموت بل قلّبتها بتلك العينين التي شيّعتُهم فيهما

-أين أولادنا منال أين ما بك لماذا تسكت شحوب عينيك لماذا

-لا عليكِ الآن سيأتي الطبيب يطمئن لوضعكِ

-أخبره أنني عطشى سأشرب الماء

-سأفعل

والتفتُّ أصلي عندما أغمضت عينيها وحالما أفرغتُ من صلاتي أفرغتْ من عيشها
-لحقت بهم إذاً
-نعم فعلتْها وتركتني على حافة الموت لا عودة ولا تقدم
لم يعرف أدهم أية طريقةٍ وأي كلامٍ يُقال بمثل هذا الموقف فضمّه ورامي إلى ذراعيه واشتم فيه رائحة أولاده الشهداء الست الذين رحلوا كما أن قلبه قبل أنفه ميّز رائحة زوجتيه وحبه لهما عنبراً مسكاً بل أطيب لا رائحة تضاهيها قط؛ بكى معه وهو يتمتم بصوتٍ مبحوحٍ غير صوته
-رحمهم الله جميعاً وأخذ حقهم من المجرم السفاح أسأل الله أن يجعلهم بين الشهداء والصالحين وأن يريح قلبك
-حفظك الله أخي
-أنتما اثنان فقط ألا يوجد عندكما أخوة
-بلى أنا وبسام ومحمد أخونا الثالث الذي استُشهد في معركةٍ حدوديةٍ مع العدو فبقي جثمانه معهم أولئك الأعداء اللذين لا يخافون ربهم هذا وإن عرفوه أصلاً
-رحمه الله وكتبه من الشهداء المجاهدين في سبيله.
-وأمي توفيت بعد استشهاده في السكري الذي ألمّ بها بعد موته أما أبي فهو رجلٌ كبيرٌ في السن يتعيّش من راتبه
-أطال الله عمره وكذلك أبي؛ رحم الله أمك التي أنجبت رجالاً أظنها بإذن الله قد فتحت باب الجنة بيدها
-إن شاء الله؛ لم تخبرنا عن أهلك فماذا عنهم

-لدي أختٌ تدرس الهندسة أصغر مني بسنوات وأخٌ في عقده الرابع متزوجٌ وعنده طفلَين أما أمي فتعمل كل ما بوسعها لتريحنا وتحمل على نفسها لتسعدنا
-ألم تتزوج بعد!
سأله بسام بنبرةٍ غير التي كان مرتديها من قبل
-لا تزوّجتُ قبل خمس سنوات ولدي طفلين والثالث في الطريق إن شاء الله
-ما شاء الله أسأل الله أن يعيدك إليهما سالماً فأنهى رامي الحديث بصوتٍ خافت متذمّر بالكاد يُسمع
-جاء الخنزير
فسكت بسام بغضبٍ وخوف ولم يعِ أدهم معنى قوله إلا عندما دخل السفاح فجلد الجميع بسوطٍ حديدي ومع ضحكه القذر أصاب خاصرة رامي فصرخ بكل ما منحه الله من قوة وخرج ذاك اللئيم بعد أن أفرغ غضبه لا بل بعد أن قضى وقتاً ممتعاً وتسلى بألمهم.
ركض أدهم إلى رامي والخوف يتسرّب من عينيه لما رآه من ألمٍ أصاب صاحبه وكأن رامي بعد تلك الضربة غيره الذي كان قبلها حيث احمرّت عيناه وتورّمت أطرافه ليعرف بمرضه من بسام الذي كان يلتمس ألمه ويقرأ عليه ما حفظ من الآيات القرآنيّة علّه يُشفى من ذاك الداء السقيم الذي أصاب الكلى عنده فكفّهم عن عملهم بشكلٍ سليم وكان الذي كان
-حسبنا الله سأجد لك حلاً يا صاحبي امهلني قليلاً
-وجعي هذا لا علاج له وإن توفّر بمعجزةٍ من الله فكيف يصير بين أيدينا

انظر للبرد طعامهم الذليل هذا الماء التي يسقوننا إياها أشبه ببول الأطفال لا بل أشد تلوثاً وضرراً أين المهدّئات والمسكّنات وتقول بعد ذلك أنني سأُشفى
-ربك قادر على كل شيء لا تيأس
تركه صاحبه المُصاب ونام ليبقى أدهم مع آلامه يقلّبها يميناً ويساراً حتى قدّر أن الفجر قد حان فقام متيمماً بعد أن بحث عن الماء ولم يجدها وصلى ثم نام وقد اطمأن على وضع رامي الذي بدا متألماً نائماً ببراءة يرتجف بأنين فألقى عليه رداءه المهترئ وأخذه إلى كتفه يتوسّدها وغط في نومٍ عميقٍ بعد تعب ساعات ليصحى رامي بعد أن تفقّده بسام يطلب الماء وقد جفّ ريقه وغصّ بالوجع
-ولكنه غداً دورنا بالماء ألا تصبر
-بلى فإنّ الشجاعة صبر ساعة ألم تقل ذاك بالأمس أي ساعةٍ هذه ستون دقيقة أم ستون عاماً
-قلته سينتهي كل وجعك ولكنك الآن مرهقٌ وقد نال منك التعب فحاول أن تنام ربما النوم يريحك
-اقترب يا بسام سأرتاح الآن سأرتاح الراحة الأبدية
-نم الآن ولا تعد لهذا فأنت البطل بيننا وستفيدنا قوتك هذه غداً في المعارك
-أتمنى ذلك لكن معركتي قد انتهت ولا أود أن تنتهي معركتكم كما انتهت
أغمض عينيه وقد ازرقّت شفتيه تماماً كما كانت هناء زوجة بسام في لحظاتها الأخيرة
-أدهم يا أدهم قم الآن بسرعة هيا أدهم

-بسام ما بك رامي أنت بخير رامي أجبني
دون أدنى استجابة من رامي ودّع بذلك الحياة في السجن وخارجه لذا اضطر أدهم أن يلجأ كما المعتاد إلى الصدمات اليدويّة والإسعافات الأوليّة التي كرهها بعد أن فشلتْ في إنقاذ ملاك وجدها وكذلك فعلت مع رامي
-رامي أتسمعني لا تدعني أكابد فراقكَ كما فعل قبلك الجميع قم يا أخي انهض واسيني كما كنت تفعل دائماً بالله عليك أفق
كان بسام يتوسّل إليه ويرجو منه أن يفيق بالكلمات لساعاتٍ فقط لدقائق يعود ثم يأخذه معه ويرحلا لكنّ عمره قد انتهى وأذن له الله بالراحة الأبدية التي تمنى لم يعرف بعدها أدهم كيف ينظر في عيني بسام ماذا يقول عظّم الله أجركم أم رحم ميّتكم أم فعلنا الذي نستطيع والباقي على الله
سكت الطبيب داخله وتكلم بدلاً منه قلبه تبعثرت منه الكلمات على حين غفلة
-أنا أخوك الجديد أنا أبناؤك الست وزوجتيك أنا أمك بالمختصر أنا مَن تبقى لك وهذه يدي إن شئت أن تقطعها فلتفعل وإن لم تستطع فتعال أحملك بها سأكون لك كل شيء
مضى شهرٌ وأيام على موت رامي وظلّ أدهم مع بقية الشباب يستمر بمواساة بسام فكان له أخوه الصغير الذي لم يفارقه طيلة اليوم ليلاً ونهاراً

حتى عاد بسام لحياته الراهنة غير الطبيعية التي اعتاد فقد فُرضت عليه كما فُرضت على الكثيرين.
كان التخطيط هناك في عتمة السجن وتحت ظلم السجّان.
ما بعد الحيطان والشبك سيبدأ التنفيذ؛ حيث يقوم أبو أيمن بمهاتفة ابن عمه الجابر ويخبره أن ساعة الصفر قد حانت فالعدد مكتملٌ وعليه تجهيزه بالعدّة.
السلاح قليلٌ ومنه العاطل إلا إنهم على درايةٍ تامة بذلك ولن يستسلموا أما ابن الهاشم فعليه تركيب المواد الكيماوية قدر استطاعته مما توفر بين يديه من معدّات ومُسيلات الدموع كما استوجب أن يستعين بصحبته خارجاً لتفكيك الألغام وكشف الكمائن قبل وقوع الفأس بالرأس وتقاسم زياد وأبو عُبيد مهام التنظيم والإشراف والإدارة ليكونا ومَن معهما محطاً للاستشارة والرجوع إليهما في الصغيرة والكبيرة.
ولأدهم أن يمكث في حي الكواكب بعد أن تهدأ العاصفة قليلاً فيفتح مشفاه فيها ثانيةً مع كادرٍ جديد يدرّبه بنفسه كما أنه سيحتاج بالطبع لبسام في إعادة ترميم المشفى الذي قُصف وتدمر منه ما تدمر ومباشرةً بعد أن ينتهي بسام من بناء المقر سينقل حيث يكون أدهم
كوّن أدهم في سجنه الذي استمر لثلاث سنوات أسرةً جديدة منحته الحب ووهبهم نفسه وروحه حيث استغنى عن راحته في الليل والنهار لينقذ مَن قدر على إنقاذه من المعتقلين الذين عُذّبوا أشد التعذيب كما شيّع العديد ممَن تعلّقت روحه بهم فكانوا له إخواناً مخلصين قبل موتهم.

وبعد أنِ انقضت فترة اعتقاله وذلك بقصف السجن من قِبل طائرات العدو فارتعد السجّانون وفرّوا بأنفسهم من الهلاك إلى الهلاك دون علمهم.
وقد خلّفوا وراءهم الأبواب المتفتّحة ليهرب المعتقلون منها والدخان الجاثم في كل المكان كاد أن يخنق الحراس قبل فرارهم لكن أعمالهم وجرائمهم أتتهم بنهايةٍ أشد قساوةً وأشنع حيث ماتوا بحريقٍ فاجر جراء انفجارٍ خطير وأما السجناء فقد مات منهم مَن مات ونفد منهم مَن أراد الله له الحياة أو دعنا نتفق أن المقصود بالحياة هنا هو المزيد من العمر وقد فارق الكثير الحياة من أصدقاء أدهم بهذا القصف الجنوني الذي لم يؤخذ بالحسبان كما فسره أدهم بعد وقتٍ ليس ببعيد على أن سائق الطائرة قد ثمل وبالغ في شرب الخمر وزاد منه بقدر ما أنساه موقع التنفيذ وتخدّر بمشيئة الله سبحانه ليتمثّل الفرج على يديه.
رغم سنواته الثلاثة التي ذاق فيها المرار بكل أشكاله وأطيافه لم ينسَ للحظة صديقه وبوصلته سامر الذي كانت سلامته هدفاً من تلك المجازفة.
كما أن طيف ضحى وأبنائها الثلاث لم يفارق مخيلته قط حيث رسم فيها وجه زوجته وتفننّ برسم خصيلات شعرها المتمردة تعاند أصابعها التي تعلّقها خلف أذنيها ثم تنساب على حدَّي جبينها بأنوثةٍ حادة وعفويةٍ مهذبة.
عانق كلاً من أولاده حتى ذاك الذي لم يره إلا في جوفها وخياله عانقهم بأحلام نومه ويقظته فلم يلبث إلا قليلاً لينتقل من واقعه لخياله الماضي والمستقبل الآن وقد فُكّ

أسره وصار حر الجسد حر التجول وإن كانت حرية فكره لم تُقيّد ذات يوم.
قصد النضال أسماءهم وطرق أبوابهم شقّ طريقه إليهم ليشقوا طريقهم للنور الأبدي فبدأ التنفيذ وأذن الله لما كان حلم الأمس في عتمة أن يبصر النور ويصبح واقعاً ملموساً.
أعلن كلٌ من زياد وأبي عُبيد الله كلٌ على جبهته عن إخبار صحبتهم بيوم الاجتماع القادم في المقر الذي انتهى بسام ومَن معه من بنائه ريثما يهيئ كلٌ منهم ما خطط لسعيه.
وكونهم محط التواصل لدى الجميع فما عليهم إلا الأمر والشورى فقد ألزموهم بالانضباط ومشَوا على نظامٍ محدد.
ودّع أصحاب السجن بعضهم بعضاً على أمل اللقاء والتنفيذ وسعى كلٌ منهم إلى وجهته حيث قصد أدهم منزل سامر الذي ما عاد منزلاً فذهب إليه محملاً بشوقه واحتياجه إليه وبندباتٍ وآلامٍ لا يفهمها ويداويها إلا الدكتور سامر هكذا اعتقد وقد تأكد من استحالة خروجه من هذه المنطقة مجدداً فإنه في الحقيقة خرج من سجنه الصغير إلى السجن الأكبر.
أكثر ما أخافه ألا يجد صاحبه وقد استبعد ذاك الاحتمال مجرد التفكير في حدوثه كاد أن يطيح به أرضاً فراح يجوب الحي باحثاً عن أي إشارةٍ من صاحبه زار ما تبقى من المنازل التي لم تُهدم بالكامل بعد؛ تفقّد منزله فما كان فيه إلا الخراب كما أنه وجد كتاب أسماء

مفتوحاً على مصراعيه والكلمات الأخيرة التي كتبتها قبيل خروجها تودّع فيها طفولتها؛ ذكرياتها؛ بعضاً من ذاتها التي بقيت في حيهم المتواضع كانت تنزف دماً قانئ تشي بأن البناء لم يُهدم إلا قُبيل قليل ولا شك بأن الجيران لم يغادروا أو أنهم غامروا كما فعل وعادوا بعد أن خرجوا ربما تذكروا أنهم نسوا أنفسهم هناك ولا بد أن الدم من ابنة جيرانهم وقد سقى كلمات أسماء التي غصّت وجفّ حلقها بعد الذي كان.

أكمل يقدّم رجلاً ويؤخّر الأخرى إلى بيت أهل حرمه حيث عرف أنه لن يجد أحداً كونه نقل رائدة مع أهله إلى جلقة تلك المدينة الأكثر أمناً حتى الآن ولكنه جاء منزلها في لحظةٍ من اللا وعي ليطمئن قلبه ويحيا ذكرها مجدداً في الذاكرة التي لم ولن تفرغ منها يوماً.

مرّ بالمبنى ووجد في صعوده همةً وشجاعة فلم يتعبه درجها بعد كل سنوات اعتقاله وتهجيره ليلقى الباب مفتوحاً ببرود دلف باحثاً عن نفسه فما وجد إلا رفيق دربه سامر عند المحط الأول الذي جمعه بمريم حب حياته.

وكأن الزمن قد توقف عند تلك اللحظة.

أمام المائدة التي أعدّتها وضحى ليلة العشاء الذي ألّف بين قلوبهم لتكون مصائرهم مشتركة فالموت لنا نحن الاثنين والنزوح والتهجير لصحبتنا هكذا ردد سامر في سره.

لم يرسِ أدهم حينها على بر سكينة فرحٍ في أول الأمر ببقاء صاحبه وسلامته وثمة سلامة لم تكن فقد رآه في

منظرٍ محزنٍ وهو في سجنه ما آل إلى ما آل إليه سامر من وهنٍ وموت نعم كان ميتاً يتنفس نائماً فاتحاً عينيه سليماً يتمزّق فبدا كياسمينةٍ أكلها الذبول في الزمن الغابر.

منسدل اللحية الطويلة المكلّلة بالبياض مُثقلٌ بالدمع الجاف نحيل الجسد الممتلئ ألماً وكأنه لم يأكل منذ سنين شيئاً سوى الهم والقهر؛ انقضّ عليه كمفترسٍ وجد ضالّته بعد جوع سنين هزّه بعنف وتوتر وألم فأسقطه دمعاتٍ غسلت بدورها دم الإصابة وريح الرصاص ولون الموت الذي ترك بقعاً يستحيل إزالتها واحتضنه فكاد أن يكسر أضلاعه بكيا معاً ألم الفقد والخوف والكرب.

تأثر لحاله الذي آل إليه فلأنفاس سامر لهيبٌ حرق قلب أدهم زفراته اتجهتْ نحو صدر صاحبه وألقتْ عليه القبض فظل أدهم يتمتم بالحمد وهو يبكي وفي حضنه سامر الذي كبر عشرات السنين هرم من الداخل وشاخ قلبه بل وعجز ثم مات.

عالج أدهم أوجاع خليله القابلة للعلاج أما تلك المتّمردة التي لا تأبه بمروره وجاثمةٌ في قلب سامر وكيانه فلا يسعفها إلا الموت هكذا أخبره بنفسه حين تجرأ وحاول أن ينسيه بعضها.

أغلقت أسماء الباب بعد خروج أخوَيها وراحت تحتضن ضحى التي بكت دمعاً أسوداً وهي تمتم بالدعاء لزوجها وبعد مضي أيام على خروج أدهم من بينهم لحظت العائلة التعب والشحوب على وجه ضحى ظنته في

بادئ الأمر حزناً على ذهاب زوجها باتجاهه نحو المجهول وابتعاد مريم عنها التي اعتادت قربها أكثر من أي شيءٍ آخر فأخبرتها رائدة بأن حملها هذا يشكّل خطراً على صحتها إن لم تنتبه لنفسها وذلك من خلال إشارات قد ظهرتْ على ضحى تشي بأنها في حالة عدم استقرار قد ألمّت بأمها أثناء حملها فيها وكانت على وشك الموت لولا أن أنزل الله لطفه عليها وصغيرتها.
ضجّ الخبر في كل مكان حي الكواكب تحت النار الحي ينزف الحي يناجيكم كما أبكى منال زوجها عدنان اضطراباً ما بين الحزن والأمل فالقلب قد هرم ولم يعد يحتمل أكثر بينما تضع ضحى مولودتها مريم التي أصرّتْ أن تسميها باسم صاحبتها الشهيدة وقد عرفت مؤخراً بموتها وابنتها فحزنت أشد الحزن على فقدانها وقد أنكها الحمل والولادة دون زوجها وسندها إلا إن أسماء لم تقصّر معها في الحنان وكثيراً ما أراح ضحى حنوّها عليها وصغيرتها والعائلة منشغلةٌ بولادة مريم التي امتزج صوت بكائها الأول مع صوت المدافع والقنابل النارية المتفجّرة والصواريخ اللئيمة.
عانقتْ صرخاتها أجنحة السماء المنفتحة وحلّقتْ أنّاتها فوق المدينة التي كان فيها ملجأهم "جلقة" وتصارعت حبالها الصوتية مع صفير القذائف ودوي الانفجارات إلى أن استجابتِ السماء للكماتها وبعثت لها الطيور بأنواعها المختلفة بأمرٍ من ربها كأسرابٍ عرقلت سير الطائرات المتوالية وظلّلتْ المدينة من ضوء الشمس

الحارقة ورميات الطيران التي لو استمرّتْ لثواني أكثر لدمّرتْ كل ما تبقى في جلقة.
ولأول مرة تحصل لطائرٍ تلك الرهبة التي خشيها العدو وعادت جيوشه وأذنابه زحفها الأول لمخبأ الفئران الذي اتّخذوه ملجأً لهم.
شهدتْ جلقة مواليداً وأمواتاً كثر خلال الفترة هذه وبعد مرور شهورٍ ليست بالكثيرة على هذا الحال كانت الأخبار العسكرية قد تحسّنت وسعى المتطوّعون في إنشاء المقرّات وشراء السلاح وذلك نسبةً لدولٍ مجاورة مدّت يدها تعين إخوانها المسلمين الواقعين تحت الضرب والواقع القصف فوقهم.
بدافع حفظ الحقوق الإنسانية واستعادة الكرامات حماية حرمة المسلمين ورفع راية الإسلام بصيغةٍ أفضل من تلك التي رُفعت بمفهومٍ آخر مختلف.
زوّدت بعض الدول النائية والمجاورة المجاهدين بالمؤن والشباب أرادوا بذلك أن يعينوا إخوانهم على النصر المعزّز من الله في المعارك القادمة وكان من بين شباب البلد نفسه قصي صاحب الفكر التجاري والإدارة اقتصادياً بحكم طبيعة عمله في إدارة المشاريع وعيسى الذي يعمل في شركةٍ لتصريف الأموال وتحويلها لمختلف أنواع العملات والكثير من معارفهم.
في قاعة الجلوس قعد عدنان يطيّب خاطر زوجته التي أرهقها غياب ابنها الطويل كما آلمها الانتظار مع أملٍ كاد أن ينفد بينما كانت ضحى وأسماء تحضرا الغداء في المطبخ.

-هوّني عليكِ يا منال إن كان لنا نصيبٌ في رؤيته فإنه لن يتمكّن أحدٌ على وجه الأرض من حجبه عنا؛ ألا تصابري ألا يريحكِ حين تقرأين عن فقدان سيدنا يعقوب ابنه وقرّة عينه يوسف النبي الطفل ابن العاشرة وبعد سنواتٍ من الكبر والمشيب كتب الله لهما اللقاء مجدداً وقد صار عزيز مصر والملك المتصرف بشأنها الذي يسّر له موعد لقائه بأبيه وساعده ليحكم مصر سهلٌ عليه أن يجمعنا بأدهم "ولسوف يعطيك ربك فترضى"

-أخاف أن أموت على أمل لقائه وقبل أن أشبع من ريحه إنه نبيٌ يا عدنان وأين نحن من أنبياء الله أين؟ أسأل الله أن يصب الثلج في هذا القلب الملتهب ألماً وشوقاً وخوفا.

-احتسبيه عند الله كما فعل وفعلنا جميعاً؛ أوَ باليد حيلة!! فلنتصرف إذاً كصبيانٍ يشتهون اللعب ولا يلقوه فيقعدوا للندب والتذمر لما منعوا منه.

-صبرٌ جميل والله المستعان اللهم لا نقول إلا ما ترضاه إن كان حياً فاحفظه واربط على قلبه وإن كان

غصّتْ في كلماتها الأخيرة فقام عدنان يقبّل رأسها ويحتضن يدها بين يديه.

في حين أشعل عدنان الحفيد اللطيف هدية الله الأكثر جمالاً تلفاز المنزل ليغيّر من صخب الحزن الذي ساد المكان.

كعادته قصي ما إن يرى التلفاز أمامه إلا ويطلب قنوات الأخبار لينظر أين آلت حروبهم ومتى ستُوقّع النهاية.

وهنا كانت الصدمة الأكثر ألماً على الإطلاق <<قوات النظام في حي الكواكب تلقي القبض على مجموعاتٍ إرهابية وتتمكّن من كشف خططها وألاعيبها في الوقت المناسب لتكون مركز العين الساهرة التي لا تعرف النوم عن حماية الأبرياء في كل حيٍّ وشارع كما أجرت عناصر الأمن تحقيقاً مع رؤوس الخلايا الإرهابية النائمة ونذكر منها ما ورد في سجلّ التحقيق "ابن الهاشم الدوسي-أبو عُبيد الحاكم-أدهم الحسن-إسماعيل أبو أيمن" ولكلٍ منهم مجموعته التي يغريها بالمال ويزرع فيها حب التطرّف والتخريب.>>

دارت مكنة التصوير بين المذكورين فلمح عدنان صورة ابنه أدهم بينهم وتأكد مما أرته عيناه من الاسم المرفق بالصورة والذي زاد الطين بلّة حيث كان الذي ظهر عبر شاشة التلفاز غيره الذي ودّعهم ليلة أمس مئةً وثمانين درجة؛ علت صرخات منال التي ندبت ولطمت وانتحب كل مَن سكن المنزل للمنظر المؤلم الذي لم يخطر لهم في بالٍ يوماً وردة فعلٍ مأساويّة لمَن شاهد تلك الحلقة المحفوفة بالأكاذيب والتزييف فالخرافات التي لا يصدقها أحد حتى هم يكذّبونها بعقولهم إن لم تذهب بعد أو إن كانت موجودةً بالأساس.

أما عدنان فظلّ صامداً يتأمل الجميع بصمتٍ مخيف وكل شيءٍ فيه يصرخ فقد تأهّبت دمعته لتزرف لولا تلك الصخرة التي أحسّ بها على صدره فشعر بأنها تكتم أنفاسه؛ للحظةٍ أخفى تأثيرها عن الحاضرين ثم هوى على الأرض كشجرةٍ تكسّرت أغصانها وتسمّم

جذرها فالتوَت ووقعت؛ هرول الجميع إليه يقلّب الأب عدنان يميناً ويساراً ليلقي على مسامعهم كلمات الوداع الأخيرة موجهاً وصيته لابنه قصي الذي أمسك يده ونهض برأسه على صدره

-أبي أنت بخير لا شك أنك ستكون بخير سيأتي الطبيب حالاً

-لا داعي له يا قصي؛ سينقضي الأجل لا محالة؛ أنت من بعدي يا ولدي الأول يا مَن كبر على عيني وأول مَن زرع في نفسي شعور الأب الفخور بإنجازه.

انتبه للجميع من بعدي وكن لأمك السند الذي لا يميل والجبل الشامخ رغم كل الصعاب كن لها ما عجزتُ أن أكونه أما أختيك ضحى وأسماء فاصرف عليهم من حنانك ورعايتك ولا تقسَ عليهما ولو أتعبك هذا يشهد الله أنه حملٌ ثقيل وزوجتك لن أوصيك فيها إلا وصية سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم

-مهلاً يا أبي مهلاً لا ترهق نفسك ودعكَ من هذا فأنت بطلي يا أبتي وقدوتي التي اكتسبتُ منها الكثير والبطل يا عزوتي لا يموت في الحال بل يبلغ مجده في إيصال كل مَن يلوذ به إلى طريقه ووجهته لا يموت قبل أن يعيش أليس كذلك أيها الراوي يا قائد المعارك الداخليّة منها والخارجيّة؛ أتستسلم يا بطلي أهكذا هم الأبطال أم أنك قد أخبرتني طيلة حياتي عن أولئك الضعيفين الذين صنعتْهم الخرافة وانتخبتْهم الجدّات ليعيشوا في الخيال ليس إلّا

-هذا القدر يا ولدي بيد الله حدّثتُكَ عنه ولم أُكثر فما أُتيحت لي الفرصة أن آلمكَ في قصصي التي هربتُ بها من واقعكَ لخيالي فكيف لي أن أُحزنك مرتين
كان قصي يحاول بالإسعافات الأوليّة التي تعلّمها من أخيه خلال حواره وقد بلّل وجه أبيه بالدمع فإنه شعر لدقائقٍ بخطورة الموقف لون وجهه الأصفر بياض شفتيه جحوظ عينيه جفاف ريقه الذي كان يبتلعه مع أنصاف الكلمات كل الأمارات التي ظهرتْ عليه تبثّ الخوف في قلب قصي الذي خيّم فوقه لا يراه أحدٌ غيره أو لا أحد يريد أن يرى ما رآه فاختاروا الابتعاد حتى وصلت سيارة الإسعاف ليكون الأوان قد فات ولم يعد لهم أي نفع حيث كان أمر قد حكم.
عمّ الحزن في كل أرجاء جلقة بعد وفاته كما أن زوايا ذاك المنزل في الغربة باتت أكثر سواداً في أنظار ساكنيه على تلك الوسادة اعتاد أن يضع رأسه ويلقي عليها كل أحزانه حيث أتى بها من حي الكواكب نظارته على الطاولة شهدت دموع فرحه وحزنه انتصاره وخيباته فنجانه القهوة الذي لامس شفتيه وأعطاه من الدفء ما يقدر عليه قبعته الصوفية كل شيء بقي ليذكّر منال ومَن معها بعدنان الذي رحل.
مرّت سنةٌ على الأحزان والآلام؛ نارٌ لظى اجتاحت سكان جلقة بالكامل القصف الثقيل الذي شهدته هذه المدينة لو وقع جزءٌ منه على آلاف المدن لانهارت كلها لم تكمل أسماء دراستها إذ بقيت آخر مادةٍ عائقاً بينها والتخرج كما أن ضحى لم تخرج من المنزل إلا إن ألمّ

بأحدٍ مرضٌ ما أو لزيارة السيدة سامية مع أسماء حيث أبَت سامية كل هذا الوقت أن تعيش معهم في البيت نفسه الذي تشاركهم فيه رائدة حفظاً لكرامتها بعد انقضاء سنواتٍ طويلة على مشاركتها زوجها فباتت كل هذه السنين في خيمةٍ لها ترعاها جاراتها الجدد وتتردّد عليها ضحى مع أسماء كلما أُتيحتْ لهما الفرصة.

وفي صباح يوم الأربعاء اتفقتْ ضحى مع أسماء على أن يتركا الأولاد في حَوزة جدتهم منال لتزور وصديقتها السيدة سامية وتحسن إليها كما تحسن لأمها

-وفي ذلك ثوابٌ لنا يا أسماء عسى أن يجمعنا الله بأدهم ويخفف حملنا ويعيد لكِ مستقبلك الذي تطمحين

-كل هذا لإقناعي لا داعي سأذهب ودون أي دعوة

-لهذا أحبك

خرجت الصديقتان معاً لتقديم العون والمساعدة قدر المستطاع دلفت أسماء لتلقاها متكئةً على عكّازها وبيدها كوب الماء الذي أعطتها إياه ضحى في الزيارة السابقة سارعت إليها تهزّها وتنادي

-ضحى بسرعة يا ضحى تعالي الآن

صرخت ضحى مع دخولها بخوفٍ وحزن

-والله هذه الزيارة الأخيرة هكذا كان نداء قلبي كل الطريق فالرحمة للسيدة سامية وروحها النقية الطاهرة سحبت أسماء كوب الماء من يدها وتفقّدتها للمرة الأخيرة لا حياة فيها بعد يومها ذاك

-رحمها الله على إخلاصها

ذاعت أسماء الخبر بين شباب الخيام ليقوموا بما هو الواجب في حالاتٍ كهذه من تكفينٍ وتغسيلٍ ودفن
أما أدهم فكانت معركته مع سامر صديق طفولته وشبابه أكثر منها مع العدو الكائن على حواف حي الكواكب حيث لم يعترف الطب بأي خطرٍ على حالة سامر سوى عملية بترٍ لقلبه أثّرت على عقله فشلّته عن التفكير صار سليط اللسان قاسي الطبع صعب الحوار وكأن روائح الضحايا والدخان؛ غبرة المباني المتهدِّمة قد تفاعلت كلها مع دمه هناك في قلبه فكفّته عما كان فيه من حبٍ ودفء فقد ألف البرد والعتمة فكيف لمَن اعتاد العتمة أن يرغب بالنور الذي نسيه كما أنه اعتاد صوت القنابل والبكاء في كل طيّات ذاكرته.
فكان في كل حديث يفتحه أدهم يصرخ ويغضب وكأن صاحبه مَن تسبب بكل المصائب التي وقعتْ فوق رأسه فيتّهمه بالنفاق وقد بذل الآخر روحه أمام وطنه وصداقته زاعماً أن رفيقه فرّ بعائلته من بين النيران والدماء التي سبح فيها مَن تبقى فأغرقته كما يظنه من أولئك المحرّضين حين كان يُسمِع الشباب ما تاقت نفوسهم لسماعه من حرية المواطنين والدفاع عن أعراض المسلمين الذين قد سُفكت دماؤهم ظلماً وعدواناً.
وفي سهرةٍ تصارع فيها أدهم مع الموت في بيت ضحى التي أضفى ذكرها الجميل على الحزن أملاً فالرصاص أتى من كل جانب وضرب النوافذ فراحت تتساقط قطعاً يجرح بعضها بعضاً فعرف أدهم حينها أنه المستهدف

من هذا القصف وأنهم لم يهنأ لهم بالٌ إلا بقتله وقتل ما يجول في فكره فيمنعوا بذلك أي نوع من أنواع التقدّم لكل مَن مشى في طريقه ذاك طريق النضال والكفاح فاختار الفرار بسلاحه الفكري وراح يلملم أغراضه قاصداً أي مكانٍ آخر يلتمس فيه الأمان وإن عزّ عليه ترك هذا البيت؛ نظر لسامر الذي تشبّث بالأرض وكأنه شيءٌ لم يكن ثمة راصةٌ لم تهز كيانه ما عاد يرتجف عند كل قذيفة ولا عاودته تلك التسبيحات مع كل غارةٍ يقوم بها العدو

-ما بك ألا تسمع الأصوات نحن المقصودون بهذا هيا أسرع واجمع ما لك من هذا البيت لنغادر

-هههه؛ كم أنت غريب أيها الطبيب

-تضحك أهناك شيءٌ يستدعي الضحك لم ألحظه هيا انهض قبل أن يصاب أحدنا أو كلانا بمكروه

-ما هذا الهراء الذي تهذي به أصواتٌ ومكروه أراك من أولئك المرقّهين الذين يفرّقون بين الخطأ والصواب كما يفرقون بين شعرهم على الطرف الأيمن كي لا يحجب الرؤية عن أعينهم البريئة

-ألا تسمعني عجّل الآن من سيرك فنحن في خطرٍ ولا أرى أن تلك الأحاديث التي ترمي إليها هذا وقتها

-لن أخرج وأيضاً كيف لك أن تعتقد أنهم قد يستهدفونك لم أدرِ حتى الآن بأنني أصاحب يوسف العظمة متى انضممتَ إلى أولئك العظماء دون أن تخبرني

هوّن عليك وهدّئ من روعك فلا أظنهم يعرفونك بالأصل وإن حدث فوقتهم ليس بالفارغ ليتسلوا معك

-والله أكره هذا الذي أنت فيه منذ متى تحادثني بهذه الطريقة ألآن لم يعجبك صديقكَ يا سامر!!
-دعك من هذه الدراما لن أخرج مهما حدث إن أردتَ أن تفعل فالباب مفتوح
وقبل أن يرد أدهم حلّت الكارثة التي خافها وحاول أن يتجنّب وقوعها حيث أُصيب إصابةً طفيفةً كما اتدعى في ساقه فكثيراً ما آلمته ولكن ألمها لم يكن بالقدر نفسه الذي تسبب فيه سامر بحواره الأخير لم يدرِ كيف يساعده وهو الذي درس ثمانية سنواتٍ في الطب لم يقدر على إنقاذ نفسه وبقي أدهم متأملاً منظر رفيقه الذي ازداد بأساً وإرهاقا فقطع الصمت الذي حال بينه وبين سامر بسؤالٍ أراد فيه أن يهدأ قلبه
-كيف تشعر الآن يا سامر أودّ أن تكون بخير فقد لاحت عليك علامات التعب
-آه إنك ترى الحمد لله الذي أهداك لصوابك بتلك الرصاصة فقد أعادت لك حاسةً عظيمة وهي النظر نعمةٌ لا تُدرك أليس كذلك
تنهّد أدهم وقبل أن يرد على سخريته جاءت الضربة الأخرى التي أوقعته إلى جانبه ووقف القصف بعدها
-نعم أرى ولكن الله قبل أن يعيد لي حاسة البصر قد أعماك من الداخل وبالرصاصة نفسها ما بك يا رجل أفق أنا أدهم صاحبك القديم وسندك الذي تجده أمامك دائماً كيف لك أن تهيننني

-العواطف مجدداً؛ لا أمل إذاً ما زلت على عهدك القديم وإن كنتُ قد تفاءلتُ قليلاً لا بأس فقد اعتدتُ الخذلان والخيبات

أنهى أدهم تضميد ساقه وأقبل يحضن سامر بقلبه الكبير وكأنه لم يسمع ما قاله علّه يكون له العون كما اعتاد في السابق حيث كان يخبّئ سامر للمهام الصعبة ففي كل ألمٍ هناك فسحةٌ للأمل في قلب سامر قبل أن صار هذا الكهل صعب الحوار بينما كان سامر يتأمل كوب الماء الذي أُصيب بقطرات دم صاحبه وقد انتبه لمنظره مؤخراً سقطت دمعةٌ يتيمةٌ من عينه اليُمنى فحرقت جفنيه وسرعان ما مسحها بيدٍ مرتجفة كطفلٍ صغير وكأن ملاك ببراءتها وطفولتها تقف أمامه.

ولأول مرة اجتمعت نظراتهما معاً فحدّق كلٌ منهما بالآخر وكأنه لم يره منذ عقود وتجاذبت أرواحهما الموجب منها مع السالب فاحتضنا بعضهما وذكرياتهما وعائلاتهما طفولتهما كل ما كان بينهما قد عاد يلوح في الأفق للحظات ليس إلّا

سرح فيها سامر بخياله يحلم بأنه يحضن ملاكه ومريم تطوف حولهما كأنهما كعبةٌ بقداستها تلتقط لهما الصور المتعدّدة والمتشابهة كما كانت تفعل تماماً دام العناق طويلاً والصديقان مُقبلان على بعضهما مُدبران على ما قد مضى إلا أنه لا يُنسى أبد الحياة

توقّع أدهم ببساطته وطفولته الفطريّة بأن صديقه سامر قد عاد أدراجه القديمة الشاب الجريء المُقبل على الحياة المتفائل وإن طرق الموت بابه آلاف المرات

العازف لحن الشجاعة والحنان معاً إلا أنّ حدسه قد خانه هذه المرة فعاد سامر لما كان عليه وكأنه وُلد حين مات مع عائلته حيث دفن أبا ملاك وزوج مريم معهما وولد هذا الباهت الجديد الذي لا يعرف من الحياة إلا المشاحنات والانتقاد والجفاف العاطفي والفكري فكأنه قصد أن يكفّ عقله عن التمحيص كما كان يفعل فهو دائماً على صواب هكذا يرى نفسه ولا أحد يستحق الحياة بعد الذين فقدهم ولا الحياة أصلاً جديرةٌ بأن تُعاش بعدهم.

فمَن باع وطنه بخيمةٍ واشترى هويةً غير تلك التي كانت مُقدّرةً بكرامته وماء وجهه أسماها لاجئاً وبكل فخرٍ يلفظها لا يستحق أن يعيش بين الناس ويأكل ما يأكلون كما أن الوطن الذي يقتل أبناءه ويكسر ظهورهم قتله الله أياً كان وأرضه تلك لا يحقّ معها إلا الحرق والدمار

تحسّنتْ الأمور في جلقة حيث صار بوسع الأطفال أن يلتحقوا بمدارسٍ مأجورة غير أن القسط السنوي كان ثقيلاً يقسم الظهر فأصرّ قصي أن يسجّل مريم في المدرسة مع ابنته خديجة وأخيها لؤي وأقنع أمه أنّ ما هذا إلا تنفيذاً لوصية أبيه وقد رفضت في أول الأمر ذهابهم للمدرسة كي لا يثقل الحمل على قصي وخوفاً على أحفادها من القصف الذي قلّ في آخر فترة.

وعمل قصي مع أنس اليادلي في السلماني فشرح له الأحداث التي سمع عنها وقد عرف فيها القاصي والداني إلا إنه صدّق كلامه بالصور وملفات الفيديو وما

كان لأنس إلا أن يمدّه بالإغاثة وقد سخّره الله ليكون الصلة بين قصي في جلقة وجماعته في السلماني ذوات الأموال والأملاك والملك لله على أي حال فأعطى من المال أهل جلقة حتى غطّى الفقر إلى حدٍّ ما حيث لم يبقَ في جلقة غنيٌّ ولا متوسطٌ في الحال حتى لحظتهم تلك ثم أرسل أنس المزيد من لوازم المعارك في حي الكواكب وما جاورها بينما كانت أسماء داخلةٌ من باب المدرسة تسأل عن شعبة الصف الأول ابتدائي لتُرجع أولاد أخوَيها حيث أوصلهم قصي في بداية الدوام وإذ به من الإدارة يطل ويصطدم بجمالها فيرجع خطواتٍ للخلف ويسند ظهره إلى الحائط أما هي فنظرتْ لملابسها حيث لم يتغيّر من مظهرها شيءٌ بعد خروجها من المنزل سفل البنطال نظيفٌ لم يلوّثه طين الشوارع وفوقه عباءتها الطويلة نظيفةً منسدلةً دون أي انثناءات ماذا إذاً لا بد من تجعيداتٍ أخرى في حجابها راحت تعدّل فيه بيدها الرقيقة فانتبه لارتباكها واستغرابها ثم سارع يعرّفها بنفسه.

-يحيى القزمور من سكان جلقة القُدامى أعمل هنا موظفاً مندوباً من منظمة الطفولة التعليمية

-أهلاً بك أستاذ يحيى

وزاد من عجبها حين تقدّم بكل وسامته يعرفها عن نفسه وكاد أن يريها هويته تساءلت أتراه يظنّها مديرة المدرسة أم ماذا فابتسمت بحياءٍ وصمت ليقول لها

-وأنتِ لم تعرفينني بنفسكِ بعد؛ أعتذر لجرأتي ولكن

-أسماء الحسن مهندسة معمارية لحدٍ ما من حي الكواكب وقدمتُ لجلقة مُهجّرةً مع أهلي
-تشرفتُ بكِ آنسة أسماء وجئتِ للمدرسة لتأخذي أولادك
سأل باستغراب كونها رغم المشيب في قلبها إلا أنها تبدو في العشرين براءة وجهها؛ بريق عينيها؛ نضارة بشرتها الربانية كلها لا تزال على عهدها وبعينَيها السوداوين خطفتْ قلبه الذي أمسكه بخوفٍ وحذر حين شك أنها ستجيبه نعم أولادي وأي فرصةٍ هذه فاتته في أن تكون قطعة السكّر الواقفة أمامه من نصيبه وتقاسمه حياته لكنها أراحته بجوابها
-لا أولاد أخوتي فأنا فتاةٌ عازبة
وقبل أن يرد عليها وقد فرح وبشدة ركض لؤي ومعه مريم وخديجة إلى عمتهم التي أحبوها كقطع الحلوى أو أكثر حباً أقبلوا عليها بضحكاتهم وناولوها حقائبهم لتحملها عن ظهورهم الصغيرة وأمسكت أيديهم ثم ألقت السلام على يحيى الذي ظلّ متسمِّراً في مكانه يتأمل خروجها مع الأطفال الثلاث والابتسامة لا تغادر شفتيه وهو يتخيّلها زوجته ومعها أبناءهما.
عادت أسماء مصحبةً معها الأولاد إلى المنزل يتضوّرون جوعاً ونادت أمها
-أهلاً بكِ يا أسماء ومرحباً بأحفادي الرائعين لقد تأخرتم اليوم ثم ما هذه الحلاوة التي تزداد يوماً بعد يوم ها ما السبب في ذلك مهندستنا

-لا شيء ربما الوراثة لا بل هي عينها لا شك؛ أخّرنا لؤي ريثما انتهى من حزم حقيبته وأكملت مريم كتابتها بينما كانت خديجة تنتظرهما ليس إلّا
-لا بأس هيا انطلقوا لتغيير ملابسكم فقد أعدّتْ لنا ضحى أطباقاً شهية إضافةً لتلك الحلوى التي صنعتها مها
فصرخت مريم بطفولةٍ عذبة
-أمي الحبيبة ستعلّمني الطبخ وستعلّمني أيضاً سرّ محبتكِ لها يا جدتي أما عمتي أسماء فأعرف أنها صديقة أمي منذ الطفولة
-أمكِ هذه امرأةٌ عظيمةٌ صابرة على كل شيء؛ أحبّتْنا وأحببناها منذ أن دخلت بيتنا وكانت لنا ابنةً كأسماء ومها
ليأتي صوت حسام من الداخل ينادي
-جدتي+ عمتي+ أيها الأطفال قد انتهى تحضير الغداء فلتتفضلوا وعمي قصي ينتظركم مع زوجته على المائدة
فاجتمع الجميع حول المائدة لتجلس الغصة الدائمة معهم.
دخلت مها غرفتها حيث سبقها قصي وقعد ساهماً في الجدار المقابل وقد دمعت عيناه فأهدته قبلةً في جبينه مرفقةً بقولها
-هوّن عليك وأرح قلبك فإننا عند الله لا نهون
-ألا يكفي ما وصلنا إليه أين هو أدهم كم مضى على خروجه من بيننا إن كان قد وصل حي الكواكب بعد

فرارهم من السجن فلا بد أنه... وأكمل بتلعثم وإن لم يأذن له الله بالوصول أو النجاة ف
-هو بخير لا ترهق نفسك ووكلِ الأمر لله
-أسأل الله أن يحفظه القضية أكبر منا يا مها توقف القصف لكن الحرب وأثرها مستمرة وقد قدّمنا الكثير من الضحايا فأين تُرانا ننتهي
-عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم لن يضيّعنا الله قدرنا أن نحارب وندخل التاريخ وبيدنا نكتب المجد أو الذل
-بل المجد فقط يا حبيبتي تعالي نشرب قهوتنا مع أمي وضحى
-سألحق بك
فتح سامر باب البيت ليجد شاباً في عقده الرابع تقريباً ذا لحيةٍ مخضّبة بين سوادٍ وبياض جاحظ العينين الغائرتين السوداوين فألقى عليه التحية وسأله عن أدهم الحسن الذي وعده أن يكون اللقاء في حي الكواكب في حال استحالة الرجوع إلى أهله بظل تلك الظروف ولم ينبس سامر ببنت شفة بل ظلّ واقفاً أبلهاً حتى جاء أدهم من ورائه ليرى صاحبه بسام وينهلّ عليه تفقّداً يتفحّص ملامحه فقد اشتاق إليه عرف بزيارته هذه أن التحرّك قريبٌ وهذا ما أراح قلبه الممتلئ غضباً
-بسام البطل حللت أهلاً
-عزيزي أدهم اشتقتُ إليك يا صديقي ولحسن حظي لم أبحث عنك في الكثير من المباني هنا وربما لأنه لم يبقَ الكثير منها

فتركهما سامر دون أدنى فضول أو تساؤل وعاد لقعدته نفسها مجدداً وكأنه شيءٌ لم يكن؛ تقوقع على نفسه وعلّق نظره على المائدة المشؤومة بينما تناول أدهم وبسام أطراف الحديث الثوري فأخبره أن التجهيز سينتهي وسيبدأ التنفيذ تنفيذ كل ما خُطط وبدقةٍ عالية وأعلمه أيضاً بموعد الاجتماع الأول يوم الخميس في تمام الساعة السادسة وهذا ما هيّج الذكريات الأليمة في نفسه وقد سمعها سامر من بين كل الكلمات خميس وسادسة فراح يعيش مع ذكرياته ومريم التي لم تفارقه قط.

ثم ترك أدهم صاحبه ليرتاح ودخل إلى سامر ليجده متجمّداً كعادته ساكن الأوصاف وكأن الدماء قد هربت من جسمه فلا المشاعر ثابتة ولا النسيان آت

-ألا يقودك الفضول لتعرف مَن بسام هذا الذي احتضنتُه بهذه الحرارة وما كان لي من الأصدقاء غيرك

-لا يهمني

قالها بهدوءٍ تام أغضب أدهم بشدة

-حسناً إن كان لا يهمك أمره ومعرفة قصته فهذا يعنيني شخصياً ويهمني أن تعرف عنه فلتسمع الآن <<بسام هذا شخصٌ تعرفتُ عليه في السجن نعم ذاك السجن الذي منعني من زيارتك طيلة السنوات الثلاثة الماضية ولم تسألني عن سبب غيابي ما عليك سأعود بك إلى بسام كان له أخٌ في السجن وكان الأقرب إلى قلبي بين كل السجناء آنذاك لكنه استُشهد بين يدي شقيقه إثر لكمة جنديٍ حقير على خاصرته وبدقةٍ أكثر كانت إصابته في

كليته المريضة أما بسام الذي تمكّن من الفرار معي حيث رأيته قبل قليل فقد كان متزوجاً بامرأتين وأنجب منهما ستة أولاد وأراد ربك أن يمتحنه بهم جميعاً فماتوا بقذيفةٍ لعينة ضربت مبناهم ودمرته بالكامل لم يبقَ له من عائلته أحدٌ غير أبوه ذاك الرجل المسكين الذي انتظره حتى خرج من السجن>>

-سيناريو لطيف لكنه فاقداً أهم عنصر "الحبكة"

ازداد غضب أدهم من برود صاحبه وسخريته فانفجر منفعلاً

-ما بك يا رجل بلا إحساس أصبحت كم سأصبر عليك ها أخبرني سأصبر كثيراً على ضعفك هذا ووهنك ألا تفيق على الواقع فلا بد لهذا الصبر أن ينفد إلى متى سأظل راكضاً وراء جبنك وبلادتك أتظن أنك الضحية الوحيدة لهذه الحرب الكل يعاني ويفقد ويخاف الكل يتألم لكن الإيمان بالله وحسن ظننا فيه لا بد أن يردعنا عن فعل ما تفعله بنفسك مَن أخبركَ أنني هانئ العيش مسرور الخاطر هنا بعيداً عن أهلي الذين نقلتهم إلى جلقة والتي لم تسأل عن اسمها ولا يهمك حالهم فيها إذ لا يزال القصف عليها ليلاً ونهاراً لا أقدر على التواصل معهم لا يعرفون أخباري ولا أدري إن كانوا فوق الأرض أم تحتها وكل هذا عاديٌ مقبولٌ حتى الآن أما عن أبيك الذي لم تسأل عنه فكيف أخبرك أنه

وسكت قبل أن يعمّق أكثر في جرح صاحبه ولم يجرؤ على إخباره بوفاة أبيه حتى رد سامر باقتضابٍ وشرود دون أن يرفع ناظريه إلى أدهم

-أنه ماذا
فأجابه بنبرةٍ أخفض من سابقتها تحمل معها الألم والأسى كما تحمل الندم على التفوّه بذاك الكلام القاسي مع رفيق روحه
-والدك توفي قبل أن أغادر جلقة فأتيت إليك أخبرك وأصحبك معي وكان استقبالي في السجن قبل وصولي إليك
رد بنفس الهدوء وكأنه يعرف قبل سنين بوفاة أبيه أو أنه سئم الحزن والفراق
-رحمه الله
ثم أكمل سكوته بلا أي تعبيرٍ عن أي شعور فاستغرب أدهم من لجومه وصار يعتذر منه فقد سمع دوي حطامٍ يتصادم بعضه ببعض داخله وكأن الأحزان تستردّ الأخرى من جديد
-عد يا سامر كما كنت عد سامر الذي صادفتُه فأحببتُه وذاب في قلبي قلبه يتحملني أوقات ضعفي أرجع لي السند فيك فأنا بأمسّ الحاجة إليك كن معي يا صاحبي لا ترهقني أكثر فقلبي كلَّ وملَّ سئم كل الخيبات لا تكن جزءاً منها بل وكلها
-لا عليك ولكنني لن أعود فما تمزّق لن يرجع وما التئم جرحاً فيّ قط فلا تبالي
-سأبقى معكَ على أي حال
ذهب أدهم إلى غرفته يحضّر أدوات المشفى الجديد ويرتب الأفكار في رأسه فقد أمن على الأجهزة الطبيّة

في غرفة ضحى ولم تصبها أية لعنة إلا أنه لم يضمن عملها كما كانت حيث ظلّت ساكنةً دون تشغيلٍ لسنين.
دخلت مريم راكضةً إلى غرفة عمتها أسماء تسألها بحزن
-عمتي أين أبي فلا جدوى من سؤالي لأمي حيث تخبرني أنه بطل وليس إلا وجدتي لا أريد أن أحمّلها المزيد من القلق ألا تحبني عمتي فلتخبرني بالحقيقة
-معها حقٌ أمك حين تكبرين ستعرفين كل شيء فما زلتِ صغيرةً وصعبٌ عليكِ أن تدركي ما سأقوله الآن
أخفضتْ مريم رأسها بألمٍ دون أدنى زيادة
-أوَ قد مات؟؟
سكتت أسماء أول الأمر وراحت تبحث عن إجابةٍ لسؤال تلك الصغيرة لتقول لها بتوترٍ ثم تصاعدت لهجتها للثقة والجديّة كأنها تحدّث طفلةً عشرينية
-لا لا حيٌّ يُرزق إلا إنه بطلٌ كما أخبرتكِ أمك راح
يقف إلى جانب صاحبه الذي تأثر بالحرب سلباً ثم إنه سيعمل بدوره كطبيب؛ فيساعد مَن يحتاجه
قالت بأملٍ ورجاء وقد عاد لعينيها الجميلتين كعينَي أدهم بريقهما
-سيعود إذاً
-نعم سيفعل إن شاء الله ذلك
دخل يحيى من الوظيفة ليستريح في منزله بعض الشيء فتناول شيئاً لا يُذكر من الطعام الذي لم يجد له طعماً وذهب لغرفته عموماً يُعتبر المنزل كله غرفته فلم يسكن البيت أحدٌ سواه حيث أن أهله هُجّروا منذ صغره أما هو

فقد سلبوهم إياه بعمر العام وبضعة شهور وعاش مع المجرمين سنواتٍ إلى أن هرب من بينهم ذات ليلة واستقر وحيداً في جلقة التي لا يعرف فيها أحد وهو ابن العاشرة ثم تعلم حتى دخل الجامعة وما إن أكمل تعليمه حتى تم توظيفه فوراً.

وضع رأسه على الوسادة التي شعرت بثقله وتمدّد شارد الزهن يستذكر مشهد أسماء مع أولاد أخوتها ويبتسم ثم يفكر بوضعه وقصته هذه التي أقامت حداً فاصلاً قبل كل علاقة فتعود إليه حالة الكآبة ذاتها كيف لها أن تقبل بشابٍ مثله زوجاً فهو لا يناسب رقتها على أي حال.

ولكنه طموحٌ للغاية فوضع يده يتحسّس قلبه في صدره ثم طمأنه وهو يردد

-لا حرج في المحاولة فأنا لستُ مذنباً بالحال وقد نجوتُ من فسادهم بأعجوبة ثم إنني حُرمت الطفولة فما بالوسع أن أُحرم نفسي بعد وقد تعلّقت روحي بها سنحاول معاً والأمر بيد الله.

بينما كانت مها نائمةً في فراشها وإذ بها تستيقظ على صوت منال حيث رفعت الأخرى صوتها في لوم حفيدها عدنان وهو الشاب الطائش الذي يكره أن يسمع من أحد ما يريده فقط أن يقوم بما يجول في خاطره فقالت مها بتذمر

-ما بكما لماذا كل هذا الصراخ

أجابها عدنان بتعجرفٍ أكبر

-جدتي تراني في زمانها وتودّ أن تصنعني في قالبها

-ولماذا ألا ترينه شاباً عريض المنكبَين بشاربٍ ولحية

-عفواً!! حتى وإن صار جدّاً وجاء بالغلط سيلقى مَن يؤدبه والجدّات تمون أليس كذلك يا عدنان
سكت عدنان وكأن قطةً ما قد سلبته لسانه لترد أمه بدلاً منه
-لا لم أقل ذلك فكلنا عندكِ تتصرفين معنا حيث شئتِ لا حرج ولكن ما أردتُ معرفته هو خطأ عدنان
-في ظل الحروب الشباب من الخارج تعرّض نفسها للخطر وتدفع عنا الضرر؛ تحمل أرواحها في قبضة يدها وابنكِ هذا راكضٌ وراء البنات الناقصات كل مرةٍ تدخل واحدةٌ على الخط نفسه
-لا ترهقي نفسكِ فهذا ابني ومن واجبي تربيته وتأديبه ألم تفعلي مع أبنائك فما شأنكِ الآن ثم إنك قلتِ بلسانك ناقصات بناتٌ ناقصات فكيف تلومين ابني
سكتت منال لما وجدته من ثقلٍ في الكلام وأي شيءٍ يُقال بعد ما كان وكأن التربية للبنات وحسب كما ثاءب ذلك مع دخول قصي حيث سمع الحوار كاملاً وفار الدم لرأسه من قسوة مها التي لم يعرفها فيها من قبل ليسرع بالدخول
-عدنان اسبقني للغرفة آتيك بعد قليل
وركض بين يدَي منال يقبّلها سامحيها يا أمي فأنتِ التي تنصحين وتغضبين كيف شئتِ ومتى شئتِ تأمرين وتصلحين أنت أم الكل وإن كنتُ مقصّراً فلانشغالي وأعتذر لما أثقلتُ به قلبك وقد ثقل حملي فلا تحملين شيئاً في قلبكِ عليّ وزوجتي التي سأتفاهم معها بنفسي وبكى في حضنها حتى أوقفته تخبره بحنانٍ وطيبة

-ما عليك فأنتما قطعةٌ مني كما أنت ابني فمها ابنتي وأقدّر أيضاً أنها متعبة؛ كما أنني ازددتُ قسوةً مع عدنان وهو في سنٍ صغير لم يعِ بعد ما أقوله أما أنت يا ولدي فلا يقلقك هذا لأنك في القلب دائماً وقد رضي عليك وعلى أخوتك كل الرضا أسأل الله أن يحفظكم لي ويجمعنا بأدهم.

سارعت مها باكيةً إلى منال دون أن تنطق ولو بحرفٍ واحد ففهمت منال حركتها تلك ووقفت لها تضمها إليها كما تفعل مع أسماء تماماً بينما كانت ضحى وأسماء تعملان في المطبخ وفضّلت ضحى أن تبقى وأسماء بعيدتَين عن سوء التفاهم الذي حُل وبالسرعة القصوى.

وكان أدهم قد انتهى من ترتيب مستلزمات المشفى الجديد حيث لم يبقَ من سابقه سوى الركام كان بسام متمماً عمله في بنائه بمساعدة بعض الشبان بما أن القصف قد توقف قبل شهورٍ عديدة فتمكّنوا من افتتاح المشفى وانشغل أدهم بعمليات النقل حتى جهّز وبسام المشفى كاملاً لا ينقصه إلا الكادر الطبي فأدهم وسامر موجودَين ويعرف الكثير من الشباب الجدد بعض الإسعافات العامة فقام أدهم بمنحهم دروساً تدريبية مُكثّفة حتى استطاع أن يفتح المشفى خلال أسابيع وبعد يومٍ شاق كاد فيه رأسه أن ينفجر تصدّعاً دخل البيت ليجده على حالٍ أسوأ بكثير من تلك التي فارقه فيها وقد تضاعف شحوبه وشخصت عيناه وكثر ضعفه بشدة فسارع إليه أدهم بكأسٍ من الماء إلا أنه لم يستجب حتى وضعه أدهم على الطاولة حيث كانت مريم وضحى

ترتّب الأطباق هكذا عقّب سامر على مكان الكأس فأمسكه أدهم من قميصه لينهار بين يديه مرةً واحدة ككأس ماءٍ جاءت فيه رصاصة وانسكب منها الماء على التوالي وقد فاضت عيناهما بالدموع؛ بكى سامر بعد أن ودّعه الدمع لسنوات بكى فقدانه وضعفه وما آل إليه كما بكى حال صديقه أدهم الذي كلّ وملّ المحاولة معه دون أدنى فائدة أما أدهم فقد أخذ الماء في يده ليرشف منها على وجه صاحبه البائس وما زادته قطرات الماء الباردة إلا تعباً وشحوباً فعرف حينها لما مرّ معه من المآسي أنه مفارقه لا ريب ليقول سامر بوهنٍ وذبول

-اعذرني يا صاحبي لم أكن معك ولن أكون أبداً فما سقط مني يستحيل إرجاعه كما أنني وأقسم لك بأنني حاولتُ من أجلك ولم أقدر سامحني يا رفيقي سامح صاحبك المسكين الذي أماتتْه الحرب حياً وأخذه الموت على دفعات؛ لا تحزن لرحيلي فهذه المرحلة الأخيرة من الموت قد متُّ على أجزاءٍ وحانت الآن الخطوة الأخيرة.

أكثر أدهم من بكائه ونحيبه حتى وقف الكلام في حنجرته المكبّلة وصار يسرح بيده فوق تفاصيل رفيقه وهو يبكي ويحترق يتمزّق حتى العظم.

-لا تجبني فإنني لا أنتظر إجابتك وأقول يا أدهم دعكَ من تذكري فهناك ما يستحق الكفاح؛ حاول يا دكتور وجاهد حتى تصل أنت ومَن معك ولا تنسى يوماً أنني صاحبك الضعيف وخذ مني العبرة التي عليك أن تتجنب الوقوع بمثلها إياك والضعف يا صاحبي؛ قف

بوجه العاصفة فقط إن نويتَ التغيير أما إن بقيتَ هناك ثابتاً لا تتحرك ستقتلعكَ من جذورك وأهلك يا أدهم أوصيك بهم فهم أهلي فوق الأرض أما أهلي في الحقيقة سألقاهم هناك أشم رائحة مريم تطوف حولي

وضع يده أدهم على فم صاحبه وقال بصعوبةٍ بالغة

-ألا تكفّ عن هذا فأنت بخير والمشفى ينتظرك فلينهض صديقي البطل قم يا سامر لتساعد صاحبك لن تستسلم وإن هزّتك الرياح فهي حتماً فعلتْ ما فعلتْه لتقويك لا لتقتلك

وسحب يده ببطءٍ حين رأى العروق في عينَي سامر تنبض بشكلٍ سريع وقد تغير لونها كادت أن تنفجر كما لو أنه أشعل فيها ناراً حامية

-سأرحل الآن وأعتذر سامحني يا صاحب القلب الذي قُتل مرات ومرات؛ سآتيكِ يا ملاكي ريثما أودّع عمكِ أدهم فهذا لقاؤنا الأخير

-قم اصرخ في وجهي اجرحني افعل ما تريد اقتلني ولكن لا تتركني ليس الآن ابقَ معي أرجوك سامر لا تدعني

نظر سامر في عينيه نظرة الوداع وتمتم

-وداعاً يا رفيق دربي ألستُ منافسك الأقوى الذي يسبقك دائماً سأسبقك الآن وأرجو لو أنك تلحق بي بأقل الخسائر وبعد أن تبلغ ما تريد

ثم أدى الأمانة لأهلها فأغمض عينيه حين هوى رأسه بين يدي أدهم ليصرخ الآخر بكل ما مُنح من قوة وقد خرج الصوت من أعماقه من بين أحشائه ينادي

-يا الله أستودعك سامر لا تفجعني به يا الله لا تجعله ندبةً تنمو داخلي أعده لي يا رباه
سامر سامر أفق يا سامر لا تدعني وحيداً دونك لا تغدر بي فما هذا وقت رحيلك بالله عليك قم فقد تمنّيتُ أن أسبقكَ بهذه
لكن سامر ذاك قد شبع موتاً بين يديه وبدأ جسده النحيل يأخذ لونه الأزرق كما بدأتْ أطرافه تتجمّد حتى أصبحتْ صلبةً متحجّرة فاستعان أدهم الذي صار كمنديلٍ مبلّل وغصنٍ منكسر بصاحبه بسام ودفناه مجاوراً حرمه مريم وابنتهما.
قرر يحيى أن يحاول وينظر ما يختاره الله له مع الكثير من الأماني في قبولها وأن تكون من نصيبه.
استيقظ في الصباح التالي ليرتدي أحلى ملابسه وأكثرها أناقةً وخرج قاصداً مكتب المدير في المدرسة كما أن غرفة الإدارة كانت مليئةً بالمدرّسين والكادر التعليمي بكامله ليدخل يحيى باحترامٍ وقد ازداد بهاءً وهيبة فقعد قليلاً ينتظر خروجهم وانفراده بالمدير حيث كانت له صحبةٌ قديمةٌ معه رغم فارق العمر وبعد أن انفضّ الاجتماع سأل المدير أن يسمعه ويُشير عليه فأخبره بكل ما مرّ معه منذ أن رأى أسماء حتى لحظته تلك وما كان من الأستاذ جلال مدير المدرسة إلا أن حفّزه وشجعه على التقدم والمضيّ قلباً نحوها؛ أخبره بأنه يعتبره أخيه الصغير وسيبقى معه في كل لحظة ثم اتفق معه على موعد زيارة أهل أسماء حيث استدلّ على عنوان سكنها من سجلّات الأولاد في المدرسة؛ ما إن حلّ المساء كان

يحيى مُتجهّزاً وآخذاً معه الأستاذ جلال لطلب أسماء زوجةً وحبيبةً ورفيقة عمر.
بينما كان الأستاذ جلال يطرق الباب وعلى يمينه يحيى واقفٌ على شعرةٍ من قلبه وقد صار قلبه أرقّ من الشعرة رنّ الهاتف في جيب قصي والغريب في الأمر أن الرقم غريبٌ ولكن النداء مألوفٌ جداً لدى الجميع فقد بدأ الرقم ب٣٣٣ حي الكواكب إذاً رد قصي مستغرباً مَن تراه المتصل أيُعقل أن يكون الذي يتمناه الجميع وجاء صوته الذي كبر سنين وسنين إلا أنه لم يفقد بحّته اللطيفة وحنيته
-السلام عليكم كيف حالك قصي معك أخيك أدهم
-أدهم!! الحمد لله وقد عُقد لسانه إثر المفاجئة حلم السنين الماضية قد لاح أمامه يصفّق بكلتا جناحيه
وكاد الهاتف أن يسقط من بين يديه اللتين كانتا ترتجفان واجتاحه البرد من بين أضلاعه لولا أن أكمل أدهم
-أدهم شقيقك الحمد لله أنا بخير هذه المحاولة المليون على أقلّ تقدير لأتصل بكم أخبرني عنكم هل كلكم بخير وفي هذه اللحظة ازداد طرق الباب لتركض أسماء ففتحته ومن بين دمعاتها وصمتها وقعت المفاجئة الثانية في الوقت نفسه فقد كان يحيى مع مدير المدرسة واقفاً أمامها وبيده باقة الورد غالي الثمن فما كان منها إلا أن تشير لهما بالدخول وبالصمت نفسه تركتهما في قاعة الصالون وأكملت تركيزها مع محادثة أخوَيها وتبدو الدهشة عليها فتزيّنها وقد ازدادت جمالاً وعذوبة

-بخير كلنا يا أدهم وما زلنا في جلقة الوضع عندنا جيد والقصف متوقف منذ شهور وأنت أين كيف حالك
-الحمد لله بخير أموري جيدةٌ إلى حدٍّ ما ينقصني اجتماعي معكم أتمنى ألا يكون اتصالاً بعد هذا بل لقاء
-إن شاء الله أمك ستطمئن
وقبل أن يكمل قُطع الاتصال لينتبه الجميع لوجود يحيى وجلال مدير مدرسة أولادهم فهم يعرفوه جيداً فسارع جلال بالاعتذار بينما ركضت ضحى لغرفتها باكيةً دموع الفرح التي غسلت قلبها ثم أحضرت سجادة صلاتها وأدّت ركعتين شكراً لله وثناءً على صاحب اللطف والتدبير حيث أنها لم تفقد الأمل قط وما أساءتْ الظن بربها يوماً لتلحق بها أسماء وتحضنها وقد عاد بريق عينيها مع ولادة أملٍ جديدٍ داخلها
-سنلتقي يا أسماء إنه حيٌّ يُرزق كما كان حدسي يخبرني دائماً سيعود لنا وربما نعود نحن إليه أتعي قولي نرجع إلى حينا حيث المُبتدى والمُنتهى ثم أدهم من جديد
-نعم يا ضحوتي سنرجع إلى حينا ونُرجع أحلامنا ومطامحنا الجليلة كلها سترجع أتذكرين شعوري الثقيل آخر عهدنا في حي الكواكب قد عاد لي نفسه بمنحى معاكس أظنها ستفرج بعد أن ضاقت أجدني أنظر إليكما أنتِ وأدهم تمسك يداكِ يديه أما أنا واقفةٌ أتابع المشهد العظيم ذاك من بعيد
-إن شاء الله ولكن من أين تأتيكِ النبوءة هذه أوَ قد تعلمتيها في الجامعة أم أنكِ تعتمدين على محض

إحساسك أفكر في أن أوظفكِ بالتوقع واستحضار المستقبل للحاضر أوَ تقبلين
ومع ضحكٍ وتهكّم قالت جملتها فتصنّعت أسماء الغضب بردها السريع وكأنها في مقابلةٍ حفظت أجوبتها بدقةٍ آلاف المرات
-لا يا ضحى فالهندسة لم تعطني كما أعطيتها وإنما هذه هبةٌ من الله وقد خلقها معي منذ بداية تكويني في أحشاء أمي
قطع حديثها طرق مها على باب الغرفة ودخلت دون أن تسمحا لها لتخبر أسماء أن يحيى ما جاء إلا ليطلب يدها للزواج بينما كان الحوار خارجاً
-المعذرة أستاذ جلال فقد كان الاتصال بغاية الأهمية منتظرٌ لسنين
-لا مشكلة وأعتذر لدخولنا بهذه الطريقة أعرّفكَ أستاذ قصي بالأستاذ يحيى القزمور
-أهلاً وسهلاً تشرفتُ بمعرفتك تفضلوا من هنا
ليدخلوا غرفة الضيافة سوياً ويبدأ جلال بالكلام مع قصي وذلك بعد أن أخبرهما قصي بقصة المكالمة مع أخيه وقد أرسل ابنه عدنان ليأتيهم بالحلوى بعد الخبر السعيد ذاك
بينما كان يحيى يصغي لكل ما يُقال وقد فتح جلال دون أدنى ارتباك حديث الخطوبة
-طبعاً لزيارتنا هذه سببٌ ودافعٌ لا بد من إخبارك عنه فالأستاذ يحيى يطلب أختكم أسماء حرسها الله لتكون

زوجةً له على سنة الله ورسوله وقد عرفنا بوفاة أبيك رحمه الله

-يشرفني ذلك ويبدو أنه إنسانٌ محترمٌ وعلى خلقٍ رفيع لو سمحت أفدني بتفاصيلٍ أكثر ما صلة القرابة بينكما

وقع السؤال في قلب يحيى وكأنه رصاصةٌ طائشة حلّت في مكانٍ حساس وتسبّبت في خطورةٍ على حياته

أجابه جلال وبالثقة نفسها

-أنا صديقه الأكبر مدير المدرسة كما تعلم أما هو موظفٌ لدى منظمة الطفولة التعليمية المسؤولة عن دعم مدرستنا وهو شابٌ وحيدٌ إلا من أصدقائه ومن بينهم طلاب المدرسة الذين أحبوه كحبهم آبائهم لحنوّه وعطفه عليهم أما أهله فقد هُجّروا من أرضهم ليبعدوا عنه كل البعد كما شاء الله أن يؤخذ يحيى غصباً من بينهم وأكمل سنواته العشرة الأولى بين عائلة المجرمين إلى أن نضج بفكره ولطيب أصله هرب من بينهم وقاده قدره إلى جلقة فتعرفتُ عليه هنا وصرتُ له أخاه الكبير فإنني أجد حرجاً في أن أقول صرتُ بمثابة أبيه وهو بهذا الطول واللحية

وقال آخر جملةٍ مع ابتسامةٍ مفتعلة فقد دمعت عينَي يحيى وتوهج قلبه عندما سمع قصته وكأنه يعيشها ثانيةً فتذكّر كل الأحداث الأليمة التي تعرضت له من الصغر لم تمر هذه المرة ذكرياته مرور الكرام بل كادت أن تخنقه فظهر عليه الأسى

-جمعكَ الله بأهلك يا أستاذ وجزاك الله خيراً جلال تعرف كم أقدّر مجيئك إلينا وقد آلمني ما مرّ بصاحبك

وأنا أتشرف بنسبه إلا أن الأمر يعود لصاحبة الرأي فهذا شأنها ومستقبلها
مسح يحيى وجهه الذي كان يتصبّب عرقاً وحاول أن يستعيد أزره وصلابته من جديد وقال بثبات
-بارك الله فيك أخي قصي يسعدني قبولك كما آمل أن ترضى الآنسة أسماء وأعدك وعد الرجال أن أكون أكثر من فارس أحلامها حباً ورعايةً لها
-على بركة الله عن إذنكم يا جماعة
-خذ راحتك
خرج قصي ليخبر منال ومها فركضت مها من فورها تخبر أسماء ببهجة؛ وما كان لأسماء إلا أن توافق بترحاب فقد وقع في قلبها شيءٌ منه من اللحظة الأولى التي جمعتها به
أما منال فقد أسعدها الخبران معاً سلامة أدهم وزواج أسماء القريب.
حضّر الجميع لزفاف أسماء ويحيى وقد تاقت نفوسهم لفرحةٍ جديدة
دخل أدهم المشفى حيث لم ينتهِ بعد من الحداد الداخلي على روح صديقه وشبابه الذي دُفن مع طفلته وحبه الأول عاد المراجعون والمرضى للمشفى وبكثرة حيث لم يعد هناك جرحى حرب وقد توقف القصف في تلك الفترة وفي حين كان أدهم جالساً ينظر في تقريرٍ طبيٍ لمريضٍ جديد دخل بسام وألقى التحية عليه
-كيف حالك يا صديقي أم أناديك دكتور هنا

-لا فرق الدكتور نفسه صديقك ليس إلّا؛ الحمد لله من قبل ومن بعد ما أصعب من الفقدان إلا النسيان
-لا تنساه أبقيه معك أينما ذهبت واجعله وعائلته نصب عينيك بل كل الأسى الذي عشناه إياك أن تحاول نسيانه وهكذا فعلتُ أنا ظلت عائلتي وستبقى قضيتي الأولى والأخيرة التي أصرّ على تذكرها في كل الأحوال سنجعلهم يشتهون ما أذاقونا إياه من مرٍّ ويتمنّون لو أنه يحدث معهم ولكن أين حلم إبليس من الجنة سنقتلهم ببطء
-أراكَ في قوةٍ لم أجدكَ بها ليلة أمس حيث تعارفنا
-ورامي يا أدهم إن أنساك إياه موت رفيقك سامر فإنني والله متذكره وسأثأر له
-لا يستحيل نسيانه ولكن الجرح ما زال جديداً عميقاً ينزف بحدّةٍ وما صبرني إلا اتصالي بأهلي فقد تمكّنت أخيراً من الاطمئنان عليهم
-الحمد لله على سلامتهم
طُرق الباب مراتٍ قليلة هادئة ليتذكر بسام ويضرب جبينه بكفه
-يا الله لقد نسيت هناك شابٌ سألني عنك وأنا داخلٌ إليك ينتظركَ خارجاً
لينادي أدهم من وراء طاولته
-تفضل أخي
دخل ياسين وقد تغيرت ملامحه وكبر مئة سنة تقريباً فقد مرّ بالكثير منذ كانوا أطفالاً

-نعم دكتور أدهم أمامك ياسين الفوجي ابن بائع المعجنات
-تفضل أخي ياسين عرفتك أيها الطفل المدلل كيف حالك وحال أهلك
-ذاك الدلال الذي زاد فوق حده ليفسد أخلاقي من حيث قصد العكس؛ الحمد لله بخيرٍ من الله إلا أن الشعور بالندم والذنب يرافقني ليل نهار في كل زاويةٍ من حياتي أما أبي رحمه الله فقد مات قبل وصولي بدقائق ولم ألحق وداعه فقط شاركتُ بتشييع جنازته مع الغرباء.
-حسبنا الله ونعم الوكيل هوّن عليك فما صار انتهى ولو بالإمكان أن نُرجع الماضي لما كنا هنا لا ترهق نفسك بالنظر طويلاً إلى ما فات
-سأكون بخيرٍ هنا جئت أطلب منك أن تنسى ياسين المدلل ذاك وتقبل بعملي معك فأنت تحتاج في المشفى طبيباً عصبياً يساعدك وأنا كما تعرف تخصصتُ بجراحة الأعصاب
-أنت أخي يا رجل وهذا وقتك فأنا أحتاجك الآن وبإلحاح
-لا أعرف صراحةً كيف أشكرك ومن الآن سأبدأ عملي أتمنى لو أصبح يدك اليمين التي تقطع فيها وتوصل
-بل أصبحت فأنت بمنزلة أخي قصي ولكنني سأطلب منك شيئاً بالمقابل
-جاهزٌ لكل شروطك
-أريد أن أحضنكَ وحسب

وقام يحضنه يشتم فيه رائحة الفطائر التي جمعته وضحى؛ رائحة ذاك اليوم الذهبي وتلك الدقيقة المقدسة يشمّ فيه رائحة أخيه قصي التي عشقها منذ الصغر حيث كانا صديقان في الطفولة إلى أن فرقتهما المصائر ليصير ياسين طبيباً في ناجراتي ويبقى قصي مدير أعمال ناجح في حي الكواكب.

اقترب الزفاف اليوم الموعود عند أسماء ويحيى جاء يوم السعد كما أسمتْه أسماء لتكون ملكته ويكون فارسها الأنيق في تلك الليلة شاركتها ضحى ومنال ومها وليلى زوجة جلال في كل خطوة حيث فتحتْ عينيها لترى ضحى واقفةً تترقّب استيقاظها وبدأت حديثها مع تثاؤب أسماء

-متى تفيق العروس ألا تملّين النوم أو تشبعينه على الأقل أم أن عرس اليوم لأحدٍ غيرك

مهلاً على قلبي يا ضحوتي حياك الله مروان خوري كلماتك تخترق دواخلي؛ لا العرس لي وحدي والفرح للجميع

-يا إلهي كيف تغيّرين الأحاديث وكأنني أخاطب أدهم

-كم تمنّيتُ أن يشاركني فرحي هذه الليلة؛ كم الساعة الآن

-عاشرة يا عروس؛ آه يا أسماء الله فقط يعلم أنني أتمزّق شوقاً إليه أتمنى رؤيته فقط وأحتاجه معي في كل حين

واغرورقت عيناها بالدمع

-المهم أنه بخير وكل شيء سيكون على ما يرام والآن أيتها الغراب البائس عليكِ أن تعملي على تحسين نفسيتي ومظهري ألستُ العروس كما تصفين
-إن شاء الله كلّي أملٌ بذلك أما أنتِ فتكونين الأجمل على الإطلاق يا فراشتي سيحسد الجميع يحيى على جمالكِ وأناقتك
-إذاً فما عندي إلا الجمال والأناقة كي يُعجب بي يحيى
-دراما من جديد كفّي عن هذا وانهضي نمارس الرياضة معاً ونتناول الفطور فقد أعدّته مها وقعدتْ تنتظرنا ثم لنذهب معاً إلى مسرِّحة الشعر ولسانكِ هذا لا أجده بحاجة مديحي
-حسناً سأنهض فهذا آخر يومٍ يجمعنا بتلك التفاصيل عليكِ أن تودّعي الجمال يا رفيقتي
-ما هذه الوقاحة لن أقبل سأراكِ كل يوم برغبتك أو دونها
-برغبتي إذاً فالضحى يأتي بكل الأحوال ولا أحد يزعجه مجيئه
-هكذا نرجع صاحبتين
وجاء المساء حاملاً معه المناسبة السعيدة لتكون أسماء نجمة الليلة كما همس يحيى في أذنها وبعد مضيّ ثلث مدة الحفل لم تأتِ ضحى بعد مما أخاف أسماء وشغل بالها إلى أن أنهت ضحى شهقاتها وكفكفت دمعها لتعدّل من مظهرها وترتدي ثوبها الأزرق القديم الذي حضرت فيه نفسه حفل تخرج سامر وأدهم وهذا ما آلمها وقد

صار فضفاضاً على جسدها المترهّل ثم تذكرت تفاصيل ذاك اليوم بالتفصيل الذي أغضب رائدة
-ألا تنتهي كفى إنه بخير وتلتقيا مجدداً إن شاء الله هيّا عجّلي فلا بد أنهم ينتظرونكِ
-إن شاء الله أيبدو على مظهري شيءٌ فأسماء لن ترحمني إن وجدت علامات بكاءٍ على وجهي
-لا جميلةٌ كالبدر تعالي الآن وستُفرج بإذن الله
دخلت الحفل من بين الجموع بثوبها الأزرق كالسماء وشعرها المتمرد منسدلٌ فوق أكتافها يتطاير لأسفل ذقنها كما أنها جاءت بالورد تضم يدها بيد أمها لتستذكر أسماء بهذا المشهد ذاك القديم حيث تقدمت بالورد لأدهم أما هذه المرة فناولتها الباقة لها وما كان لدمعاتها إلا أن تتمرد كما تفعل خصيلات شعرها وضمتها أمام الجميع رفيقة الدرب هذه وصديقة الطفولة وسار الحفل بشكله غير الاعتيادي حيث أن الجميع اعتاد المكوث في البيت ونسي كيف يكون الفرح والاحتفال وفي الوقت نفسه فإن أسماء صاحبتهم كلهم وهذا ما أدخل بصيص الضوء لقلوبهم وهم ينتظرون فرحةً كهذه إلا أن الفرحة ناقصة الكثير وربما كل الفرحات بعدها تكون كذلك
حان موعد الاجتماع هكذا أخبر أبو أيمن رفاقه بأسلوبه المخطط له والمُتفق عليه كما تم تحديد المكان بدقة ليكون الملتقى طويل المدة حيث تم شرح الأهداف والوسائل؛ المخاطر وآلية ردّها نوقشت أدق التفاصيل إلى أن تم تجهيز الشباب بالسلاح ليبادر كلٌ من أدهم وبسام بحمل السلاح وقد تمّ تدريبهم جيداً على التعامل

معه بحذرٍ شديد لتبدأ المعارك معاركاً حقيقية ذات الطرفين التي يكون فيها الصدّ والردّ؛ كرٌّ وفرّ؛ انتصارٌ وهزيمة؛ ربحٌ وخسارة فبهذا قويت كلمة الأبطال وصار لهم سبيلٌ للدفاع عن أراضيهم حيث صنعوه بأيديهم.
أما المشفى فقد أمن عليها أدهم بيد ياسين وخبرته فكان من خيرة الإداريّين وقد خبره في حالاتٍ صعبة فُرضت عليهم بحكم عمله العسكريّ ونجح ياسين بكل العمليات والمهام الصعبة ليضع فيه أدهم ثقته ويتركه يدير المشفى ويدبّر أمرها وحده دون أي تدخّلٍ منه إلا في حال طلب ياسين ذلك فلن يقصّر أدهم بواجبه الأول أمام مهنته التي أتلف ثمانية سنين من عمره بدراستها.
بعد تنهيدة بسام وزفرته الطويلة سأل أدهم
-ألا ترى يا أدهم أن معركتنا معهم ليست عادلة
-لا أبداً لا أجد ما تقوله ولماذا يراودك شعورٌ كهذا وأنت مَن شجعني في بادئ الأمر
-أراهم أكثر ونحن قلة سلاحهم يُطوّر كل معركةٍ أضعافاً عن سابقتها ونحن متجهون بانحدارٍ نحو الحضيض ألا تلاحظ برود القادة وتغيرهم معنا ألا يرون كيف نقصف منطقة العدو ويقصف مناطقنا ولكنها حماقةٌ أن نقارن بين القصفين
-صحيحٌ كل حرفٍ قلته يحمل وجهاً للصحة إلا أنك نسيت الكثير أولاً إنّ الله معنا وعليهم وهذه النقطة الأهم عليك التركيز بها وثانياً نحن أهل الأرض وهم مستعمرون لا أرض لهم ليس إلّا وبالنهاية رغم كل شيء لا يصحّ إلا الصحيح وثالثاً رامي وزوجتيك

فأولادك وأخيك أما أنا فلا أراه ضرورياً أن أذكّرك بهم وهم نصب عينيك ألم تقل ذلك بالأمس أرجعهم إلى قلبك وذاكرتك يا صاحبي فهم القضية بالأساس

-وعلم الله فيكم ضعفاً سبحانه خلق الإنسان هلوعاً كما ذكر بكتابه الشريف لن أنسى أياً منهم وسأبقى في الجهاد مستمراً اللهم الثبات.

وفي المعركة التالية في صباحهم التالي زادتِ القذائف كما هو غير متوقع ولم يكن محسوباً حسابه وفق الخطة التي رُسمت؛ وقع الكثير من الضحايا إلا إن الله سدد رمي المجاهدين الأبطال فجعلوهم في هلعٍ دائم يتحسّبون عدد الدقائق ويطيلون القلق الذي أفزعهم ولأول مرة وقد صدمهم هذا في الحقيقة أما أدهم فكان مصيره الموت بتلك الرصاصة التي استهدفت صدره وموقع قلبه تحديداً لولا لطف الله الذي خلق الوفاء في بسام كما خلق فيه عينيه وقلبه لينقضّ عليه كمفترسٍ خطير حيث جاءت الرصاصة في كتفه ثم سحب أدهم صاحبه المخلص المدمى وقام بإسعافه حتى منّ الله عليه بالمزيد من الحياة وتمثل للشفاء شيئاً فشيئاً.

خلال فترة تعبه ظل بين البيت والمشفى مع ياسين أما أدهم فواصل المسير في المعارك

-كيف حال بطلنا اليوم

-بخير والحمد لله تخيّل لو أن الرصاصة أصابتك كنتُ بالتأكيد سأجن خوفاً عليك

-ألم أقل لك أن الله معنا كما أن إخلاص صاحبي يحميني من الخطر دائماً وهذا النفس لم يُكتب له بعد أن ينتهي
-الحمد لله على سلامتك
ودخل ياسين ليطمئن بالاً على بسام فرآه بصحةٍ جيدة وأقبل عليه مبتسماً ما هذه الرجولة يا بسام لقد هيّجت الغيرة بي إن لم تكن تدري
-لو كنتَ مكانه لفعلتُ الشيء ذاته ولو كنتَ مكاني ستقوم بما قمت بالتحديد
-بالطبع يا صديقي أمازحكَ لا أكثر فأنتما عائلتي الجديدة التي لا أملك غيرها بعد أن ضيّعتُ عائلتي الحقيقية ليقول أدهم ضاحكاً
-ما هذه اللعبة اسمها تبادل الأماكن على ما أعتقد نسيتَ يا بسام ثالثكما الواقف هنا أم تحسبني بلا مشاعر لو كنتُ مكانك كنتُ سأقف أمامك وأشاهدك ببرود أو ربما فديتك وأخذتُ الرصاصة بقلبي فأموت وتبقى حسرةً لديك.
فأجابه ياسين بضحكٍ أكثر
-لا يا زميل فأنت فاهمٌ موضوع المشاعر هذا بأسلوبٍ خاطئ ما لك يا رجل ستميتُ صاحبك حياً
وأكمل بسام يزيد القعدة أنساً
-الحمد لله أنك أخبرتني كي لا أعرض نفسي للخطر أبداً ولا تحتاج أن تنقذني أو تقتلني معك للأصح
فضحك الرفاق الثلاث وتجهّزوا للنوم فينتظرهم صباحٌ عسير؛ معركةٌ جديدة أشد خطورةً وأهمية.

بعد مرور سنواتٍ ليست بالقليلة دخلت مريم إلى غرفة عمتها أسماء تنادي
-عمتي أين أنتِ
فردت عليها من المطبخ حيث كانت تحضر الطعام مع ضحى
-هنا يا حبيبتي ما بكِ ماذا هناك
-غداً النتائج وأحببتُ أن أُخبركِ ألا يمكن لعمي يحيى أن يعرف نتيجتي مسبقاً
-اللهم التوفيق لست أدري يا مريم ولكنه منشغلٌ جداً
-أصعبٌ هذا يا عمتي كل النتائج بين يديه لا أريد علامات المواد منفردة المعدّل النهائي فقط يفي بالغرض
-ألم أقل لكِ يا مريم صعب وعملكِ يحيى لا يجد وقتاً ليجلس معي وابنه فكيف أطلب منه نتيجتك اصبري كغيركِ واعتبري أن عمتكِ لم تتزوج من مسؤولٍ تعليمي ماذا كنتِ ستفعلين في هذه الحالة إذاً غير الانتظار والصبر
-بارك الله فيكِ عمتي وأسأل الله أن يرزق عمي يحيى أو أقول الأستاذ يحيى كل الخير على دوامه الطويل ذاك.
وقد غصّت بجملتها الأخيرة بينما كانت أسماء تتبادل وضحى النظرات بخبثٍ لم تلحظه مريم من غرفتها
-يكفي هذا أخبريها فقلبها الآن يشتعل توتراً كما أنك أضفتِ على السيناريو ما لم نتفق عليه

-نتسلى قليلاً دعيها تتشوّق أكثر حتى تسعد بالنتيجة ولا تخافي فإنها لن تكره أي تصرفٍ تقوم فيه عمتها حتى وإن نتج عن حماقتي هذه

-طفلةٌ لم تكبري يا أسماء تسلّي معها أتدرين أنني حين لامستُ هرمكِ قبل سنين ازداد حزني وألمي فترتها إلى أن عادت لكِ طفولتك وأفكارك النيّرة هذه.

-نيرة أليس كذلك وتشعّ نوراً فوق نورها لكنني أخاف أن ينفجر النور هذا في وجه مريم انقلي أنتِ الأطباق التي صارت جاهزة وأنا سأخبرها بالنتيجة

-لا يا أسماء اتركيها لي وإن أحببتِ فمهّدي لها دون أن تصيبي هدفكِ وبهذا تستمتعين أكثر

-أمركِ مولاتي؛ سأفعل

-أين أنتِ يا مريم

ردّتْ مريم بصوتٍ مبحوحٍ مخنوق يخالطه البكاء

-هنا في الغرفة

-المعذرة يا صغيرتي ولكنني صارحتكِ بالحقيقة فأنا أحب زوجي ولا أريد أن أُثقل عليه أكنتُ مخطئةً بذلك

وقالتها ببراءةٍ خالصة لتعدّل مريم من جلستها ونبرتها

-لا يا عمتي بل أنتِ على صواب وأنا أيضاً أكره أن أُثقل عليكما والنتائج غداً سأنتظر حالي حال جميع الطلاب وإن غداً لناظره قريب

وما هذا ما آلمني حقاً ما يجرحني في الحقيقة هو غياب أبي تراها غداً النتيجة حين تصدر كيف سيكون حال أمي وجدتي أما أنا فالحزن بدأ يتخلّلني من الآن

-سيأتي أبوكِ لا تقلقي وسيفخر فيكِ أيضاً هيا تعالي معي فالغداء جاهز والكل ينتظرنا حتى يحيى حضر اليوم للغداء

أيّ ألمٍ هذا الذي قذفته مريم في قلب أسماء وقد قصدت الأخرى أن تلطّف الجو فما زاد إلا ألما وتوتراً

-المشغول نفسه!!

قالتها بألمٍ وحسرة

-ماذا يخسر لو كلّف نفسه وجاءني بالنتيجة ألهذا الحد أهون عندهم لو أن أبي هنا لما تعبتُ لهذا الحدّ

-أقلتِ شيء!! مريم كلنا نحبكِ

قالتها أسماء فشعرتْ مريم بالحرج أيعقل أنها سمعت ما يجول في سرها أو أنها الغبيّة نطقتْها بصوتٍ مسموع

دخلتْ لتجد أمها تضحك وجدّتها دامعة العينين

-مباركٌ يا حبيبتي معدّلكِ الممتاز الذي ستبلغين فيه غايتكِ الصحافة والإعلام بانتظارك

لتكمل منال بعد صدمة مريم

-وفقكِ الله يا حشيشة قلبي وحبيبة أبيكِ ستكونين الإعلامية الأجمل على كلّ الأصعدة إن شاء الله

فعقّب قصي على جملة أمه

-الإعلامية الأجمل والأنجح والأصدق هذه مريم يا أمي ابنة الغالي صاحبة التميز مثله

وما كان منها إلا أن ترد عليهم بدمعات الفرح والأسى فقد تذكرت أبيها بكلام عمها وجدتها

-سأصير مثله وهذا فقط بفضلٍ من الله ودعمكم لي لا أعرف أي شيءٍ أقوله عمي يحيى أشكرك من كل قلبي وأعتذر لك عن سوء ظني فيك فقد ظلمتك؛ أبي الثاني قصي كيف يخبر المرء معلمه عن مدى حبه؛ أمي يا قوتي وياقوتي

الشكر قليلٌ جداً عليكِ؛ جدتي ينبوع العطاء سأكون ما تحلمين؛ عمتي أسماء نتفاهم معاً على انفراد

ضحك الجميع على هذا التهديد الأنثويّ اللطيف

دخل عدنان مع ابن عمه حسام إلى غرفة قصي يسأله

-ونحن يا أبتي أما آن الأوان أن نصحى من غفلتنا وننتفض تجهّز جيوشاً شباباً من جيلنا نفسه وتتركنا نقعد كالنساء

-ألم أقل لكَ أجّل الموضوع ريثما أروّي في الأمر

-بلى قلتَ لنا بالأمس أتخاف علينا من الموت!!

-جُرحت كرامتنا يا عمي وأُصبنا بصلب رجولتنا الديار تذهب من بين أيدينا دون أن نحرك ساكناً أما هؤلاء القلة الذين يجاهدون طوعاً لأمر الله فما هم بالأقل منا شأناً ولسنا بأهمٍ منهم نحن المتقاعسين

-اهدأ أنت وابن عمك لم أقل أنني خائف عليكما فما خوفي على أرواحكما بأكثر من خوفي على ضياع الأرض ودم

المجاهدين ولم أقل أبداً أن تقعدا كالنساء لا بل استمرا بعملكما عند النجار ريثما أدرس الموضوع أكثر ونرى محلّنا من الإعراب فالتسلّح الآن يبدو لي مخاطرةً ومغامرة ليس إلا ولكنني أحترق مثلكم وأكثر فأنتما شابان لم تعيشا في تلك الديار إلا مطاردَين لم تشربا من ماء حي الكواكب النقي العذب ولم تلعبا بشوارعها وقد تعلّقت قلوبكما فيها وتشبّثتُما حتى آخر نفسٍ لكم فيها فكيف لي أن أتركها لغيري ليدمّرها ويعكّر صفوها ولكن الأمر أكثر تعقيداً لا أريد أن أرميكم للتهلكة لذا سأدرس الفكرة أكثر

-حسناً يا عمي نعدك ألا نضغط عليك أكثر وستبقى الديار لنا إن شاء الله ولكن أينما كنا وفي أي وقتٍ كان وجدتَ الفرصة قد أُتيحت فلا تفوّتها علينا إننا يا عماه نشتاق الجهاد

-أتوصي عمك الذي شغلته أرضه عن نفسه سأبذل الجهد كما تعرفا فأنا أعمل مع أنس لدعم المجاهدين وتجهيز الشباب المُنضمّين إليهم من جديد عليكما الآن أن تتدربا أكثر على السلاح وتدربا مَن معكما ربما تكونا في المعركة القادمة

-لقد تعلمنا يا أبي وصرنا نجيده كما تريد سنعلّم البقية وجاهزين في أي وقت

-اتفقنا إذاً فلتذهبا للعمل

-على بركة الله هيا يا حسام

وبعد فترةٍ ليست بالطويلة انضم عدنان وحسام لمجموعات المجاهدين الجديدة أما قصي فظل على عمله مع أنس وأكمل وظيفته في إدارة الشركة التي افتتحها مؤخراً.

ازدادت الحركة العسكرية في حي الكواكب تقدماً بشكلٍ أوضح وبتنظيمٍ أدق من السابق كانوا بالمستوى الأقوى حيث كان هجومهم أكثر من الحراسة وقد عملوا بفئاتٍ مرتبة مما شتّت عدوهم رغم قلّة توفّر السلاح الجيد إلا أنهم تمكّنوا من السيطرة على بلدةٍ جديدة وعلى أكثر من جبهةٍ كانت النيران تشتعل وتتّقد.

شعر أدهم بالكبر والوهن فقد ازداد عمره بعض السنين وهمه قرون إلا أنه يعاود الاتصال بقصي آلاف المرات ويفشل رغم ضيق وقته غير أنه لم يعرف لليأس طريقاً ومع كل مرةٍ يحمد ربه أنه تمكّن تلك المرة من الاتصال ومعرفة أخبارهم ولكن الاتصال ذاك مرّ عليه أعوام.

دخل غرفته وترك بسام نائماً في الخارج مع ياسين بعد أن رجعوا معاً إلى المنزل ليأخذوا قسطاً من الراحة إلا أنه نظر بعفويةٍ إلى المرآة ليجد الشيب يملأ رأسه وقد تضاعفتْ التجاعيد في وجهه فراح يتخيل منظر ضحى بعد هذه السنين كيف تُرى صار شكلها مع التجاعيد أم أنها لم تكبر بعد بالقدر الذي وصل إليه بالتأكيد جمالها ثابتٌ إن لم يزد فحتماً ما نقص أو قلّ أما زالتْ تهوى القراءة وصوتها عذبٌ كما كان أتُراه الدفء الرقيق في صوتها حين تتلو القرآن نفسه وكمية الخشوع زادت بلا شك فإيمانها بالله قويٌ لا يزحزحه شيء كم صار وزنها حتى الآن لا بد له من الزيادة فالمرأة مع تقدمها بالعمر تسمن ويزيد وزنها إلا أنه متأكدٌ أنها محافظةٌ على رشاقة جسمها ولياقتها البدنية فهذا ما كانت تهتم به وتكره السُّمنة

أتراهم الأولاد صالحين معها أن تربيتهم أخذت من عمرها وأتعبتْها صعبةٌ جداً على الأم دون الأب تربية الأولاد ولكن قصي وأمه لن يتركاها على أي حال أوَ قد درسوا أم أنهم يعملون مع قصي ولم يعرفوا معنى كلمة مدرسة جنينها الثالث ويقول جنيناً بعد عشرين سنة وأي جنينٍ هذا عمره عشرين هذا الجنين العشريني أكان ذكراً أم أنثى؟ يتمنى من كل قلبه أن يكون أنثى لتشبه أمها وتحمل معها وأسماء أمسك رأسه المتصدِّع بكلتا يديه وهزّه بشدةٍ يصرخ من أعماقه وكأنه بصوته ذاك أراد أن يخرجهم من هذا الجحيم جميعاً يريد أن يرتاح من التفكير وتمنى لو أنه يعود طفلاً ينادي أمه بغضبٍ وطفولة

-أماه تعالَي قبّليني تعالَي ساعديني احملي معي بعض همي الذي لم يعد عقلي يسعه كما كنتِ تحملين عن ظهري حقيبتي المدرسية

وعلى سيرة أمه كيف تفعل الآن لا بد أنها كبرت جداً أيعقل لها هي الأخرى أن تصير عجوزاً ببعده عنها وعلى الأغلب فإن وجع مفاصلها قد تضاعف مع كبر سنها فهو يلازمها منذ الصبا

-تباً لك من بين الرؤوس كفى.. كفى دعني لا تقتلني أكثر

راح صريخه يدوي في البيت حتى أيقظ بسام وياسين من نومهما بعد جهدٍ طويل كلاهما خائفَين هرولا إلى صديقهما ليجداه يبكي كطفلٍ صغيرٍ تعب من كل شيء

-اهدأ يا أدهم اهدأ ما بك أهناك شيءٌ جديد

-ليته الجديد هذا يحدث وينهي هذه الدراما في رأسي والله قد تعبت لم أعد أحتمل كل شيءٍ ضاق أمامي تعبت

-هوّن عليك يا صاحبي إنهم أحياء وهذا يكفي لأن يزرع الأمل فيك أما أنا فكيف أفعل وقد تجرّدتُ منهم كلهم إلّا من أبي الذي صار بالمصحّ لفقدانه الذاكرة تُرى إن انتهت الحرب أين أنتهي أنا ربما مع أبي وربما أيضاً معكما إن قويتَ ورفيقك على المقاومة والصبر

-الحمد لله أعتذر منك يا رفيقي فقد فقدتُ توازني لم أشهد الحالة هذه حتى وأنا في مرحلة المراهقة صدّقْ لو قلتُ لك أن كل هذه القذائف وقعتْ في قلبي ويصعب انتشالها لكننا سنكون معاً في النهاية لا تقلق

فقال ياسين بلسانٍ متلعثمٍ وعينين ذابلتين ملأها الدمع

-لا تخف يا صاحبي ولا تنهار قريباً سيكون اللقاء بإذن الله

-أجدني محتاراً مع هذا اللقاء وقد رسمتُ ملامحه في مخيّلتي آلاف المرات وغيّرتُ في السيناريو ملايين الجمل ولكن وبعد هذا التعب كله والانتظار صرتُ أرغب بلقاءٍ بعيد لا أرغب في أن يروا ضعفي ومشيبي أين مشيبي هذا الذي عجزت فيه خصلات شعري على التمسك بلونها فتركته يتغير حيث شاء من مشيب أبي ذي الوقار والهيبة أين شيخوختي في الحلم من هذه اللعنة في الواقع أهذا أنا

-أوَ بقي أحدٌ كما كان قبل عقدَين مَن منا حافظ على تفاصيله لا بل مَن منا لم يفقد شيئاً من ذاته إن لم يفقدها بالكامل

-أعتذر إن أزعجتكم كالمجنون

-بل نعتذر يا ثالثنا على كل ما قد وصلت إليه نعتذر عن زفراتكَ وألمكَ نعتذر من الطفل الملتحي الرابض في قلبك تنهيدتك هذه نرجو أن تصفح عنا صاحبيك قليلَي الحيلة دمعتكَ التي تتأرجح في ثنايا مقلتك نطمع لو تسامحنا اعذرنا على كل ما لم نستطع أن نساعدك به

أمسك أدهم يد صاحبه كما كان الأبطال في الأفلام يفعلون إلا أن الرفاق هنا يعيشون الأسى وقد قُتلوا جميعاً لمراتٍ عديدة في المجازر الجماعية مرةً خنقاً وأخرى جراء إطلاق رصاصٍ طائش وثالثة استُهدفوا برصاصاتٍ سليطةٍ في قلوبهم ورابعة أشبهت موت أسرة بسام حيث قُصف البناء فيهم كل ضربةٍ حدثت قتلت أجزاءً منهم

أمسك يد رفيقه تحسّس العروق فيها التي نبضت بسرعةٍ لو مشت فيها سيارة لصار حادثٌ مُريع من الثانية الأولى

-شكراً لله عليكما أتعرفا ربما لولا الحرب ما كنا معاً إنه القدر الذي يأتينا مع كل محنةٍ بمنحةٍ لا نبصرها أول الأمر ثم نتوسّل إلى الله أن يبقيها لنا

ثم التفت لبسام يخبره بخوفٍ وقلق

-أتذكر يا بسام في عهدنا القديم أول تعارفنا في ذاك السجن وقت تمرير الكاميرا علينا واحداً تلو الآخر وبعدها بدقائق راودني شعورٌ سيء وصفته لك وقتها بقبضةٍ من حديد تضيّق نفَسي تكاد أن تخنقني والآن قد عاد إلي نفس الشعور

-وكّل أمرك لله مجرد أوهام فأنت لم تنم منذ فترةٍ طويلة وفي تلك اللحظة كما قلت كان لك قبلها رحلةٌ طويلةٌ من التعذيب

والآن استرخِ وأغمض عينيك سأحضر المصحف وأقرأ لك ألا توافقني يا ياسين

-بلى والله إنها فكرةٌ جيدة "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" سترتاح الآن بإذن الله وحاول أن تفكر باللا شيء فقرأ بسام بصوته الحزين الذي يشكو يتماً وألماً كان الفراق يطغي عليه الفقد يلوّح له بين الحين والآخر قرأ فبكى ثم مسح دمعه وعاود القراءة ثم بكى وكان أدهم يبكي معه وياسين يتأمّلهما ويتذكر والده ويردّد في سرّه "سبحانك إني كنتُ من الظالمين" كم ظلم نفسه قبل أن يفعل مع أبيه كيف له أن ينسى شيئاً أشبه بالعقوق رغم أنه عرف برضا أبيه عليه وإخوته.

بينما كانت مريم تتجهز لآخر امتحانٍ جامعي وقد لاحت النهاية في الأفق واقترب تحقيق حلمها بالتخرج أما المعارك العسكرية فقد ازدادت حدةً في الأيام الأخيرة وأثناء القتال التفتَ عدنان على صوت ابن عمه حيث اهتزّت الأرض تحتهم من قوته ليقع حسام شهيداً قبل أن يصل عدنان إليه وقبل أن يسحب جثته ويرجع بها أفرغ مخزنه بالكامل في الجهة التي أتت منها الرصاصة ربما يكون في ذلك قد أخذ بثأره ثم دخل البيت بوهنٍ شديد مغبرّ الوجه والملابس مُدمى اليدين مُنهك الروح وكأن قلبه قد تم اغتياله قُبيل قليل فسرعان ما رأته ضحى وراحت تنتحب أما منال فركضت بعد أن سمعت صراخ ضحى خوفاً مما كانت تخشى وقوعه أحد أحفادها بين يدَي الموت ولكنها كانت الأكثر صبراً بالحال وصبّرت نفسها حين تذكرت أن أدهم لم يقعد مع ابنه

كثيراً فلا تظنه ينهار عندما يعرف كما تفعل ضحى أمامها وراحت تطبطب على ضحى وتُداويها حيث جُرحت وكان لأسماء ومها الدور الأكبر في الاعتناء بكل شيء ضحى وابنها الشهيد؛ عدنان الذي قُتل من الداخل كل شيءٍ بكى لبشاعة الموقف حتى الجدار الذي اتّكأ عليه عدنان شاركه البكاء لا بل بكى عوضاً عنه فقد عجزت دمعات عدنان عن النزول وكأن حواجز الجيوش التي انتشرت في كل مكان قد وصلت لعينيه فأوقفت دمعه وكفّته عن المسير وضحى تلك الأم المكلوم قلبها كانت الأكثر تمزقاً في تلك اللوحة فقد جاءتها المصائب تباعاً.

وبعد فترةٍ وجيزة كتب الله لمريم أن تتخرج من كلية الصحافة والإعلام أما أمها فقد استمرت بانهيارها دون توقف وتلفت أعصابها بشكلٍ كامل وبالتحديد بعد أن ماتت أمها بالسكري الملعون ورغم محاولات منال وأسماء ومها في الترويح عن نفسها غير أنها لم تتحسن حالتها إلا قليلاً وهذا ما آلم مريم وانعكس هذا الألم على مقالاتها وتقاريرها التي كانت توازي قصف الجيوش على الجبهات ولكن بسلاحها الرقيق قلماً وورقة استطاعتْ بهما أن تحكي الكثير ويصل كلامها إلى الخارج كما أنه غير الذي ظنّته ضحى أنه مجرد تذكير المجروح بجرحه لا فائدة منه ولا جدوى إلا إنها كل الفائدة فيه حيث صار السلاح أكثر والناس الذين تعاطفوا وتسلّحوا فالتحقوا بالمجاهدين قد ازداد عددهم بالحال.

تفاعل الجميع مع كلماتها كيمياءٌ بين كلماتها وقلوبهم فقد كانت تجسّد الواقع بثمانية وعشرين حرفاً ليس إلا.

عاد ياسين من المشفى بعد انتهاء يومٍ شاق حافلٍ بالمشاغل عالج فيه الكثير من الجرحة مَن استطاع إنقاذهم ومَن عجز عن فعل ما لم يكتبه الله في حقهم.

ودخل بعده أدهم في الواحدة ليلاً يناديه

-ياسين لقد أتيت وسأتناول لقيماتٍ من الطعام لأعود حالاً فالاشتباك لم ينقطع والنصر يلوح في الأفق بات النصر أقرب مني إليك يا صاحبي

-الحمد لله على سلامتك اللهم الثبات والقوة سأحضّر لك الطعام بنفسي

وبعد أن تناول أدهم عشاءه ظلّ مرابطاً مع قوّات المجاهدين لعشرة أيامٍ بلياليها لم يعرف النوم طريقاً لأجفانهم التي تشقّقت ولم يبقَ بينهم وبين نصرهم سوى بضع خطوات وقد تمكنوا من السيطرة على مدنٍ شتى الأغلب تقريباً صار تحت تصرفهم وملك أيديهم

إلى أن بدأت الهدنة بشكلٍ مفاجئ لم يُخطط له وما كان من بين البنود؛ أغضبهم هذا بشدة فكأن العشرة أيام بل عشرات السنين قد هُدرت وصارت هباءً بتصرفٍ غبيٍ كهذا؛ هدنة!! أي توقف التقدم لدى الطرفين ولماذا أليسوا في قوّة وعرفوا في عدوهم الضعف كيف للغباء أن يحتلّ عقولهم مرةً واحدة هكذا وبهذا الوقت.

أرهق خبر الهدنة ذاك عدنان وقصي ومَن معهما فقلب مزاجهم وآمالهم رأسها على عقب وغضب عدنان لما صار إليه وضع الثورة التي جعلتْهم ولمراتٍ عديدة يشعرون بأنها

لهم وتذوّقوا طعم النصر لأوقاتٍ طوال حتى جاءت قصة الهدنة المشؤومة لتسلبهم نصرهم قبل أن يُكتب فتحرمهم أسمى أحلامهم وقد عرف الجميع الغرض من هذه الهدنة في مثل وضعهم ذاك وبعد ما حققوه من إنجازاتٍ ولكنهم يحافظون على القليل من الأمل ليعيشوا به فكم رددت منال على مسامع أولادها

-"ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل"

وأخيراً بعد الهدنة التي استمرت شهوراً لم تشهد فيها أية بلدة قصفاً من أي نوعٍ كان فقد عمّ الهدوء أرجاء البلد إلا إنها لم تسلم من عواقب الحرب التي لم تنتهِ بعد فلم يعمّ الأمان في أي قلب من قلوب أولئك الأبطال الناضجين وكيف لهم أن تسكن جروحهم مع توقف القصف

وفي حديقة المشفى كان أدهم جالساً مع صديقيه ياسين وبسام يحكي لهم عن أخيه قصي ومدى تعلّقه بابنه الذي انتظره الجميع على أحر من الجمر

-وكان أكثرنا حماساً وتلهّفاً لقدومه والدي "عدنان الكبير" كما كنا نسميه بعد مجيء حفيده إلا أنّ الكبير هذه لم تعجبه كثيراً.

ثم حكى لهم بسام عن ابنه الأول غياث وتوسّع بوصف مشاعره أثناء قدومه التي لم يبلّغها حقها وقد استرسل بالحديث عن الفرحة بالابن الأول التي لا تشبهها فرحةٌ قط ولا يضاهيها أي شعور كما وصل إلى آخر أولاده وآخر أفراحه بعد أن خطفتهم الحرب فجأة ليلعن ثورته ألف لعنةٍ ويشتمها بغلاظةٍ لا تشبهه

كانوا على استعداد أن يخوضوا في أي حديثٍ حتى لو كان في الطبخ ولا يتوقّفوا عند الثورة فقد كلّوا وملّوا نفس الشعور الخيبة والكثير من الضحايا فيهم

-هكذا كانت حياتي عبارة عن جملةٍ من الأحداث الفجائيّة في بداية الأمر تزوجت بفتاةٍ أحببتُها وأنجبتْ لي أولادي الثلاث ثم مات رفيق دربي فأوصاني بزوجته وهو يحتضر وما كان مني إلا أن تزوجت وأتممتُ ديني كاملاً فالنصف قد كان بالأولى ثم أنجبتْ لي صبياً وابنتين ليكتمل سعدي بأولادي الست وفي غضون ثوانٍ لم تلحق العين أن ترف حينما فقدتهم دفعةً واحدة وبعد ذلك رحيل أخي ثم اعتقالي لأعيش أقسى أنواع التعذيب وأشدها بشاعةً لأفقد ثاني أخوتي ثم خرجتُ بدافع الدفاع عن الوطن وأي وطنٍ هذا الذي لم يبقَ لي فيه سوى ذاك الأب فاقد الذاكرة حتى وإن ودّعتُ معهم مشاعري فحتى منزلاً لم يُبقِ لي هذا الوطن لا بأس حملتُ السلاح مع مَن فعل كما حملتُ دمي الذي كاد أن يجف على كفي وجاهدتُ تلبيةً لأمر الله ليأتوني بهدنتهم تلك

-أعرف كم عانيتَ يا رفيقي وإن حسبك الجميع قد نسيت فإنني لا أصدّق أن لمثلك أن ينسى ويهرب من ماضيه وفي هذا يا بسام شرفٌ لك إذ لم تسلّم اليأس زمام الأمور كما أنك تحارب عن أرضك وليس عن نفسك وأهلك فحسب وطنٌ هذا أعجبنا أم أبغضنا

أما عن هذه الهدنة فقد أرهقتني وكم أتعجّل إصدار نتائجها لنعرف رؤوسنا على أية وسادةٍ نضعها

ليكمل ياسين بأسى

-أما أنا فلا أجدني راغباً في سماع أي خبرٍ جديد فقد هدأ حالنا لشهور وإن لم يسترح بالنا تفكيراً بالعواقب وكما شعرنا منذ اللحظة الأولى لإعلانهم الهدنة فالعواقب حتماً لن تكون كما نحب.

-وربما أيضاً نصنع المجد من جديد كما حاولنا في المرة الأولى فإن نيّتهم في الحقيقة أن يكبحوا ثورتنا ويخمدوا ذكرها وأثرها فينا.

-قد نفعل لا شيء يصعب على الله

قام أدهم من بينهم يحاول الاتصال بأهله مجدداً كما اعتاد وكالعادة باءت محاولته بالفشل في إجراء المكالمة لكنه وجد في هاتفه بين الإشعارات التي كان يتخطّاها بتجاهل إشعاراً حديثاً مختلفاً يقول في مطلع القصيد

<<أتودّ أن تعرف نتائج المؤتمر!

أترغب بمعرفة مصير بلدك!!

أكرهتَ الحرب وتاقت نفسك للسلم فأنت لا شك على ترقّبٍ وتلهّفٍ لسماع أخبارنا

فاستغرب أدهم حين فتح معه الرابط بمجرّد الضغط عليه على غير العادة

ثمة اتصالٍ لم تتوفر شبكةٌ لإجرائه ومع ذلك فإنها قد توفرت لفتح هذا الرابط ودون أي تواطؤ ثم خرج أدهم للحديقة حيث كان صديقاه وأكمل قراءة ما كُتب فيه ليبدأ المذيع بتعداد

البنود التي خرجت فيها قادة البلاد بعد أن تصافحت وتناولت معاً غداءً شهياً وافر السخونة

<<أولاً: كل متمرّدٍ خرج عن طاعة أولي الأمر منه سيعود من فوره إلى عهده القديم

ثانياً: تنعم البلاد بالأمن الدائم ولن تشهد بعد الآن أي رصاصة؛ سيكون فيها الإعمار فقط والبناء من جديد وكأنه شيءٌ لم يكن

ثالثاً: تخضع البلدات التالية (جلقة-جنادب-صَورة-قناديل-كراكبة-سوار-صارورة) لسيطرة الدكتور أيمن النور

والبلدات (حي الكواكب-قلب الجحر-صندوق الفلا-زعبوب-سوق النجاجرة-العتالين-الحسنيات) ستكون لسيادة الحاكم نضال الأجعد ليحفظها وأهلها

رابعاً: يتم سحب السلاح بكافة أنواعه من جميع المدنيّين والمتمرّدين منهم ستصدّهم الحكومة بقوةٍ لم يشهدوا مثلها قط

خامساً: تُبنى الحدود بين البلدات المتجاورة والتي تخضع كل واحدةٍ منها لحكومة وذلك حفاظاً على أمن جميع الأطراف وسلامتهم.

وبالكاد انتهوا من سماع نتائج المؤتمر بل كلفظٍ أدقّ وأكثر توضيحاً المؤامرة التي عُقدت خلف ظهورهم بأسمائهم

وقبل أن يفتحوا أفواههم التي كانت ستنطق الكثير دخل الحديقة عشرات العناصر المسلحة التي كان أكثرها رجالٌ منهم حاربوا معهم حضروا نفس المعارك في نفس الصف

ردّوا عنهم الأذى فدَوهم بأرواحهم ليجرّوهم الآن ككلابٍ مستعرة في الطريق وقد سحبوا منهم الأسلحة ثم أكملوا لموقع المقر الذي بناه بسام بيديه وقد كان هناك الضابط الجديد المتعجرف لا يتجاوز الثلاثين من العمر ألقوهم أمامه كما لو أنهم قمامةٌ قد فاحت ريحتها النتنة في كل مكان أرادوا أن يقتلعوها من جذورها أرادوا أن يُلقّن أشباه الرجال الرجال حقاً درس عمرهم

-سينتهي إرهابكم بل انتهى أليس كذلك

-لم يكن إرهاباً يوماً كان حرقة قلب ودفاعاً عن النفس والأرض والدين

رد أدهم يبتذّ الجندي الذي لا تليق فيه كلمة ضابط يضبط ماذا قذارته!! لا فإنها على الأغلب لا ضابط لها على وجه هذه الأرض

فأكمل بسام بهمسٍ مطبقاً أسنانه على بعضها والشر ينبثق من عينيه

-ما تسميه إرهاباً سميناه ثورة؛ ثورة شعبٍ عرف الظلم فيكم فأنكره.

أما ياسين فقد احتفظ بهدوئه لفترةٍ لم يعد يحتملها فبصق في وجه ذاك الحقير حين زاد في الضحك على كلام صاحبيه ومن ناحيةٍ أخرى فهناك مَن انضم لرفاقه من البقية وهناك مَن آثر الخنوع على أن يُذلّ فسكتَ على مضض والبقية صارت في الصف الجديد مع الأقوى

مع الذي يربح

ما إن انتهتِ المسرحية إلا وكان المشهد الأخير من نصيبهم فردوا عليهم بأيديهم وأرجلهم وسياطهم ولولا أن رستِ المناقصة في النهاية عليهم لأنهوا حياتهم بالحال ولكنهم فضّلوا أن يُبقون لهم الحياة ليعيشوها مع نكباتهم وخيباتهم.

وبعد مضي أيام لم يُفتح أي حديثٍ بين الأصدقاء الثلاث وقد نُزع المشفى منهم فصاروا من البطالة تقريباً وصار وجودهم يشكّل خطراً على المجتمع لا بشهادتهم ولا بسلاحهم ولا بفكرهم كل هذا قد أتمّ دوره وجاءت المرحلة التالية مرحلة الموت السريع فقد كان الموت على أجزاء خلال الحرب مع كل فقد تُشيّع جنازة قسمٍ من الإنسان والآن بعد أن آلت إليه حالتهم صار الموت يأخذهم دون أي مقاومة دون إنذار ودون آثار.

أما أدهم الذي صار في منتصف الخمسين من عمره فظل متمسّكاً بلقاء أهله حتى ولو في الحلم وما شغل بسام وياسين شيءٌ إلا المحاولة معه وفجأة وبدون أدنى أمل بالاستجابة نجح ياسين بمحاولته ليضع الهاتف على أذن أدهم الذي غصّتِ الكلمات في حلقه وكأنها دُفنت هناك.

-السلام عليكم أدهم الحسن يتكلم

-وعليكم السلام كيف حالكَ حبيبي أنتَ بخير!! أخبرني

جاء اتصال أدهم علاجاً لحالة ضحى التي تتطور يوماً بعد يوم وكأنها لم تعش لحظة أملٍ قط وحالما سمعت صوته النديّ عادت وكأنها لم تذق الشدة قط

-ضحوتي كيف حالكِ أهلي أولادنا أكلكم بخير أما زلتم في جلقة

-الكل بخير لا تقلق

-أقول يا حبيبتي قد انتهت الحرب كما لم نشتهِ قط ولكنها انتهت على أية حال فلا بد لنا من اللقاء بأي شكلٍ كان

-أحلم أم ماذا فقد أحيى صوتكَ هذا قلبي كما تحيا بالماء الورود فعد لي ما كنت تقوله

كان يحكي بسرعةٍ قصوى خوفاً من أن ينقطع الاتصال ولا يتفقا على اللقاء

-أحبكِ قبل وبعد كل شيء أعرف أن الظروف قد قست عليكِ وذقتِ من مرار الحرب كما ذاق الجميع وهذا يثقل كلماتي ويتعبني سنجتمع مرةً جديدة يا كلّي

-كلك نعم كلك؛ سأحبك يا أدهم لآخر نفسٍ بي

-بين جلقة وحي الكواكب عند الحدود الجديدة التي أُقيمت ليلة أمس سيكون اللقاء يوم الخميس الموافق ل (-١-١-) الساعة السادسة كما أخبرني ذاك الجندي بأنهم سيتيحون لنا المجال أن نلتقي أخبري الجميع بالقدوم ابتداءً من أبي وحتى أصغر أحفاده

-حبيبي أدهم كيف حالك يا بني ولدي سأراك

-نعم سنلتقي يا أمي سأدفن رأسي في حضنكِ الدافئ طويلاً

قُطع الاتصال لتقبض منال على الهاتف بيدها التي زاد ارتعاشها وتبكي ثم تضحك حين تتذكر بأنها ستراه

التفت أدهم لصاحبيه بعد أن أغلق الهاتف

-سيلتم شملنا قريباً سألتقي وأهلي بعد كل هذه السنين الطويلة فقد أخبرني الجندي الطيّب ذو العمر الصغير عن المواعيد المتاحة للّقاء واخترت هذا الوقت تحديداً له أهميةٌ خاصةٌ عندي كما أنه أقرب وقتٍ ممكن من الذي ذُكر

ضحك الاثنان ضحكاً هستيرياً بمرحٍ وطفولة وهما في الستين كأنهما لم يكبرا عن طفولتهما وكأن تلك الحياة العلقم قد عاشها أناسٌ غيرهم فقالا معاً

-نعرف بذلك أم تعتقد بعد كل هذه السنين التي قضيناها معاً أنك وحدك فتفاؤلك هذا وابتسامتك الجديدة جعلتنا نبحث عن السبب حتى عرفناه سنكون معك أم ماذا

-سأكون معكما، هكذا إذاً تخبئا أمر معرفتكما عني لا أجد الآن وقتاً للنقاش معكم ولكنني سأفعل في أقرب فرصة

فضحك الثلاثة وترقّب أدهم يوم الخميس بقلبٍ يغلي وقد عدّل من هيئته وحفّ شاربه وأزال ما تمرّد من لحيته ليبقى منها ما بقي للوقار في مظهره أما قلبه فما تمكّن من إزالة الخدوش فيه الأوجاع؛ الذكريات؛ الأحلام المتحطمة؛ الجثث التي شيّعها لم تخرج من هناك فقد أعجبها دفء قلبه وأتعبته إلا أنه رقص فرحاً بلقاء الأهل من جديد فهو لا يعرف حتى الآن جنس الجنين أقصد مريم أما أسماء تُراها كيف صارت بعد كل هذه السنين لا بد من أنها قد تزوجت أم أنها ستبقى الفيلسوفة التي ستغيّر المجتمع آه ليتنا لم نفعل يا أختاه ربما صنعت رجلاً على قالبها ليصير زوجها وربما انصاعت

لأقدار الحياة وتطبّعت بأطباعٍ جديدة كما يفعل الجميع والآن سنلتقي بعد البأس الذي أحلّ بنا

ويتذكر أدهم حواره مع زوجته

بينما كانت تقرأ في القرآن مر بالقرب من غرفتها ليسمع تلاوتها العذبة فما أراد أن يقاطعها وحالما انتهت وطوت مصحفها دخل لتناوله إياه وقرأ به حتى أنهى الصفحتين وأغلقه ثم استرخى مستلقياً على السرير فسألته فوق سجادة صلاتها

-أتعتقد أنها أنثى أم ذكر

-لن أعتقد فكلاهما هديةٌ من الله ثم كيف لكِ أن تجزمين بأنها فتاة فإنه لا شك قلبكِ يخبركِ بأنها أنثى والحامل لا يخطئ حدسها

أتمنى أن تكون فتاة تحمل جمال عينيكِ وقلبكِ وابتسامتك

-إذاً فلتكون أنثى

-أبهذه السهولة!!

-لا لم أقصد الذي فهمته ولكنني كنتُ حائرةً في أن أتمنّاه ذكراً أم أنثى وبما أنك تمنّيتَها أنثى فسوف أقلّدك، ماذا نسميها

تذكر فوراً صديقتها مريم كما تذكر مدى تعلّقهما ببعض فقال بعفوية

-مريم نسبةً لوالدة موسى عليه السلام كما أنه اسمٌ جميل

-سنفعل وستفرح مريم كثيراً إن عرفت

فقال بأسى في سرّه وبصوتٍ خشي أن يكون مسموع

-لن تعرف على أية حال

دخلتْ مريم غرفتها بعد انتهاء دوامها وقد اطمأنت على وضع أمها وعرفت أن أبيها قد اتصل

لتفتح دفتر مذكّراتها الشخصي وتكتب في أولى صفحاته تحديداً في الصفحة التي تركتها طيلة الوقت فارغةً تخاف أن تفسد بياضها ترتجف يدها ويجفّ حبر قلمها مع جفاف حلقها ويباس الكلمات أما هذه المرة فكانت أكثر جرأةً وصارت تقوى على الكتابة بهذا الموضوع ذاته

<<إلى أبي الغائب الحاضر أحبك أولاً أو لا أحبك حقيقةً لا أعرف ولكنني لا أكرهك إطلاقاً وأعذرك على أي حال

أما بعد يا والدي المحترم فلن أسألكَ عن شكلك حيث حدثني عنه الكثير؛ حدّثوني عن جمال قامتك الطويلة وبهاء مظهرك؛ عن بياض وجهك ونعومة شعرك وأخلاقك التي لا أجد بي الكثير منها وهذا ما يؤلمني حقاً فقد أشاد الجميع بها؛ حدّثتْني أمي عن لطفك وذكائك ثم أخبرتني عمتي أسماء عن قوة إيمانك وكثرة تتبّعك للمساجد ثم وصفتك لي جدتي بحاتم الطائي أما عمي قصي فلم يشأ يخبرني عن صفاتك لأنني رأيتها فيه؛ هكذا أظن والآن يا أبتي لن أتعبك بطول حديثي فأنت رجلٌ مسن قد شاءت الأقدار بمشيئة الله أن تنتهي هذه الحرب لهم ويستمر تشريدنا أو يدوم إن قدّر الله ذلك فأريدك أن تعرف يا أبي أنني والله شاهدٌ على ما أكتب أخلصتُ إليك كما أخلص جدي لجدتي رائدة بل وزدتُ عليه فقد حاربتُ

لأجل لقائك ولأجل أن تغرق عيناي في بحر عينيك حيث تشابهن عيوننا كما تقول جدتي ولا أحسبكَ فعلت يا أبتي؛ اعذرني إن ثقل كلامي على قلبك إن وصلك فأنا لا أُحسن الكلام مع الآباء ولا أُجيد احترام مَن فقدتُ البوصلة إليه اعذرني يا أبي وتحمّل غلاظة قولي وحماقة تصرفي لن آتيكَ معهم لا تسألني لماذا لأنني لو وجدتُ الإجابة فحتماً لن أبخل عليك فيها سامحني يا مَن من المفترض أن يكون سندي وعزوتي سامحني فالعيش بنصف اليتم يقتل بسوطٍ من الأمل ربما نلتقي غداً ويكون الماضي ذكريات تباً لها من بين الذكريات لا بل سأحذفها من أرشيف حياتي وكيف الآن أحذفها خمسةٌ وعشرون عاماً كيف لها أن تُحذف وأي لقاءٍ هذا بعد يشفي، أفضّل يا أبتي أن أعيش معك في الحلم أتخيّلكَ كما أتخيل أبطال الروايات الخيالية أعرف أنني لن أجدهم ولكنني أتلذّذ بتخيّلهم أرسم لهم آلاف الصور بذهني وسأفعل معك مثلهم لن أراك في الواقع لن أراك في عقدك الخامس بل سأحاول أن أُبقيك في ذاكرة قلبي عشرينياً جميلاً بعينيك السود ستبقى بين الوهم والحلم ولكنهما أفضل من الواقع لا ريب، أجدكَ يا أبتي في مفترق الطرق وعند بائع الفول ومرةً في العيادة أحياناً نائماً وأحياناً تتبسّم وأنت تغازل أمي أما أنا فأراقبكما من بعيد ببراءة

وقد رأيتكَ بالأمس تحضنني ضمن ذراعيك المنكسرين وأسألك بطفولة

-أوَ قد ثقلتُ لهذه الدرجة يا أبتي

فتجيبني بحنان

-لا يا حبيبتي أنا أطوي يداي بهذا الشكل كي تطوفان حول خصرك وتنغمسان من كتفيكِ حتى سفل ظهرك

ولكنني ثقلتُ للحدّ الذي لم أكن أتصوّره ولم تفعلها ولن تفعلها أبداً

أجدك يا أبتي بي حيث فقدتك وليتني لم أفقدكَ يوماً وليتني لم أجدك>>

مريم أدهم الحسن

أرفقتْ رسالتها باسمها الثلاثي ولأول مرة ثم وقّعت بالحبر الذي جفّ قبل أن ينتهي التوقيع وقد أوشكت على الانتهاء معه ثم استعانتْ بقلمٍ آخر لتكتب ما دار في فكرها من جديد على الصفحة نفسها

ملاحظة:<< اعذرني يا والدي على تكرار كلمة أبتي وأبي ولا فهمني كما لا أريد أن تفهمني أنني فاشلةٌ في الكتابة التي لا أجيدُ شيئاً مثلها ولكنني أكثرتُ منها ربما لافتقادها في واقعي فتُكتب على الورق بلا حرج ولكنها لن تُحكى أبداً والسلام لقلبك يا أبتي>>

سارع عدنان لمكتب أبيه وقد خبر مشاعره وحسم أمره

-أبتي إنني وعلى سنة الله ورسوله إن أرضاك هذا سأطلب يد مريم من عمي حين نلتقي

فرح قصي بهذا الخبر وأوصله إلى ضحى من وراء مها خوفاً على مشاعر ابنه في حال لم يتم القبول وكسراً للفتن

لكنّ الموافقة قد وقعت من مريم وأمها على عدنان الشاب الخلوق ذو الفكر الناضج والقلب الشجاع

جاءت أسماء وابنها الذي لم تُرزق بغيره لتهنّئ مريم وضحى وفي تلك اللحظة أخبرت ضحى الجميع أن الخميس سيكون اللقاء المنتظر.

غمرت السعادة كل الموجودين وترقب الجميع تلك الليلة بحماسٍ مرفق بتوتر إلا إن مريم ظلّتْ مصرّة على أنها لن تكون معهم وما أرادوا أن يضغطوا عليها أكثر

أما منال فراحت تفكر كيف سيخبرونه عن وفاة أبيه ثم ابنه البكر أول أولاده مَن أبصر النور مع فتحة عينيه

-لا بأس سيكون بخير وسنساعده على الصبر

وضعتْ كفّها المتجعّدة على قلبها تسكّنه بقولها

أحضر ياسين زوجته وأولاده من ناجراتي بعد أن استقرّ الوضع فحاول أن يتعايش ولكنه لن ينسى ما حدث حتى وإن حاول لن يقدر وكيف لعشرين سنةٍ أن تُنسى ولم تكن ككل السنين بل كانت الواحدة منها عن عشرة

أما بسام فقد قطع على نفسه عهداً ألا يبني عائلةً بعد تلك التي ضاعتْ وقد كان له من التجارب ما يكفي فلا شكّ أنه اختبر نصيبه من الزواج والارتباط ولو كان في العشرين لما نوى أن يكوّن عائلة هكذا أخبر نفسه فليعش بقية حياته مخلصاً تحكمه الشهامة ولا يحكم شيئاً سوى صنابير البيت وأضوائه

وأخيراً اقترب الخميس المنتظر وقد قال بسام لأدهم يلاطفه

-إن الخميس لناظره قريب

-ما أبعده

-بل ما أقربه ستكون بينهم بعد أيامٍ وقد صبرتَ على كل المدة التي مضت

-سيحدث إن شاء الله ولكنك يا ياسين ستذهب وتدع امرأتك وأولادك هنا وحدهم

-لا سأبقى معهم وتخبرني بلحظات اللقاء الأولى وإن لم تفعل فإنني مرسلٌ معكَ شاهد عيان أليس كذلك بسام

-بلى سأفعل حتى لو أخبرك بنفسه فلن أفوّت الفرصة في الثرثرة عن أول لقاء

وفي صباح الخميس وقد غسل وجهه الذي لم يشهد النوم ولو لثانية وتوضأ يصلي بخشوعٍ شديد ويقرأ من الآيات أجملها أطال سجوده ثم نهض ودعا دعا وبكى طلب من الله مالم يبوح به أمام أحد؛ سأله أن يرحم رفيقيه سامر ورامي؛ طلب منه أن يصبّر قلب بسام ويغفر لياسين و أخبر الله الذي لا يغيب عنه شيء عن كل المساجين الذين جاوروه؛ دعا لهم ربه فرداً فرداً الأحياء منهم والأموات؛ دعا لذاك الجندي الشاب الذي أخبره بموعد اللقاء دعاه أن يرحم ملاك وأمها وجدها حتى زينب شقيقة زوجته تذكرها في دعائه بالرغم من أنه لا يعرفها؛ ناجى ربه كثيراً حتى تعمّق إلى ما قبل الحرب ودعا لمَن كانوا هناك في بؤرة حي الكواكب أيام السلم تذكر أبا ياسين وجواد ورائدة وسامية التي عرف فيها مؤخراً ثم مرّ بذاكرته ذاك الوضيع الذي كان قدوته ذات يوم

أيمن النور المشرف على رسالته الماجستير ومدير المشفى التي خلّفها وراءه لطالبيه وهرب كالجرذان لبلدٍ أجنبي حتى انتهت الحرب وعاد منتصراً كما ينتصر عربيٌّ عشريني على طفلٍ روسيٍ بعامين بإتقان اللغة العربية

لم يدعِ له ولا عليه بل تركه على زمة التحقيق في المحكمة الأكثر عدلاً على الإطلاق عند القاضي جل جلال ربه ورب كل شيء

والآن خلف الجدار ينتظر الصديقان أن تقع المفاجئة التي درسوا تفاصيلها لمدة عشرين سنة

-الساعة الخامسة حتى الآن وكأنها أُصيبت بالجمود هي الأخرى

-الأخرى! ومَن غيرها أنت؟؟

أترى نفسك جامداً وقد أهلكتني

-لا فقلبي يغلي ويكاد يخرج من مكانه اضطراباً خائفٌ يا بسام ومتوتر أشعر بالفرح يمتزج بالحزن لا أعرف أبكي أم أضحك أودع أم أستقبل

فردّ عليه بكلماتٍ قليلةٍ وباقتضابٍ شديد ما كان يريد أن يخسر حريراتٍ أكثر فهو متحمسٌ جداً ولا بد له من أن يتجهز للمشهد الذي انتظره طويلاً

-ستهدأ حالما تراهم أمامك

وترك أدهم يتذكر حين توتر سامر فسأله باضطراب

-كم الساعة معك فساعة يدي قد تجمّدت الآن

-الخامسة يا سامر لا لم تجمد ولكنك توترت ألا تذكر قولي حين حذرتك من أن تفعل

-ما باليد حيلة أشعر يا رفيقي بمشاعري تختلط ما بين الفرح والخوف، الإقبال والإدبار، الحب والتردد، الضياع والوجود كل هذا داخلي

-تشعر بمشاعرك! جميل اهدأ الآن وخذ هذا الكأس من اللبن ستهدأ يا عريس ثم قل لي ما الذي يقلقك عمي جواد وأبي سيطلبان ما عليك أنت إلا أن تسترخي وتهدأ فالتوتر ينعكس على وجه المرء وتبدو بعينها ضعيفاً هزيلاً ثم ترى بعد ذلك أن الارتباط بك مغامرةٌ ليست جديرة بالخوض

-لا لن أتوتر؛ أعدك شكراً يا أدهومة

-أدهومة! توتر أخي توتر أفضل

-دلعٌ لاسمك على ما أعتقد وأحببتُ أن أدلّلك أفي هذا حرج!!

-لكَ ما تشاء

انظر لساعتك الجامدة قد اتجه عقربها إلى السادسة والربع هيا الحق بهم

-لقد تأخرتُ حسناً أراك يا أدهومة

-اغرب عن وجهي ولن أراك إن عدت لأدهومة هذه مرةً أخرى

ريثما أنهى ذكراه مع سامر وقد وقف إلى جانب بسام خلف الحدّ الفاصل بين البلدتين كان العقرب المتجمّد في ساعته يدور فقال بسام

-ها قد صارت الساعة السادسة فليبدأ المشهد المنتظر أتدري كم أشتهي لو أنني أملك كاميرا لخزّنت هذا المشهد فيها وأعدت مشاهدته آلاف المرات

-أتعرف يا بسام هنا تحديداً مسقط رأسي كما يُقال حيث كانت أمي عائدةً من سوق جلقة ومعها خالتي حين فاجأها المخاض وأخبرتها خالتي التي كانت تعمل في المشفى المبنيّ هنا أنني آتٍ على عجل لا وقت للوصول إلى البيت وإن فعلت لتشكّل خطرٌ كبير عليها وعلى جنينها الواقف أمامك

-سبحان الله حفظك الله أيها الجنين

وضحك بسام بحماسٍ وترقّب

-مصرٌّ على الحياة كإصراري على الموت وكلاهما يتنافس مَن يحظى بي هكذا أنا منذ الصغر

وإذ بهم يأتون من بعيد وكان قصي في عقده السابع قد انحنى ظهره وصار أصلعاً كاملاً كما كان والده يصف نفسه ثم نظر لأسماء فوجدها تساند أمها العجوز وإلى جانبها الرجل الخمسيني ممسكاً بيدها لم يتمكّن من رؤية البقية حيث لمحت سهام عينيه بالجهة الأخرى قصيدته الأولى وإنجازه الرفيع رآها تركض إليه كما لو أنها في العشرين من عمرها وتطوي خطواتها أمتاراً من الأرض حتى وصلت وأمسك يديها بيديه

أراد أن يقول الكثير الذي خبّأه طيلة السنين الماضية غير أنه لم يقدر على التفوّه بأي حرفٍ فضغط يده على يدها وقد ارتخت الثانية حتى شعرت بأن العروق تهرب من يدها إلى

اللامكان حيث كان كفها بالكامل سجين قبضته التي طالما انتظرتها بتلهّفٍ وشوق علّقت عينيها في عينيه التي أُغمضت بعد أن انحنى على كتف بسام.

تمّت

بعد أن تنتهي من قراءة الرواية وقبل أن تشتمني عليك أن تعرف أنني لم أتلذّذ بدمعتك كما يفعل غيري بل قصدتُ إيصال القضية لا أكثر؛ قضية شعبٍ مكلوم طلع إلى الدنيا باحثاً عن حقه وكرامته فما وجدهما وقد زاد الطين بلةً حين

انتفض من غيبوبته يطلب بعض حقه؛ حرية الفكر ليس إلا قُتل وقبل أن يُقتل مُثّل في حياته ليصير كالجثث المتراكمة الباقية من الزمن الغابر

حتى وإن كانت أسماء المدن مزيّفة فأنا وأنت نعرف المقصود عينه ولكننا لا نذكره ليس خوفاً أو خنوعاً ما عاذ الله أن نفعل ولكنه حفظاً على ما تبقّى من كرامة وقدسيّة هذه الأراضي فإنها لم تكن لوحةً فنيّة كل مَن رغب يضع لمساته بريشةٍ جديدة

إنها قطعةٌ في الأرض اقتُطعت من الجنة

بالمناسبة الرواية لم تتناول الطابع الوطني بل الإنساني البحت.